جـامعــة المـثنـــى
كلية التربية للعلوم الانسانية

المادة
تاريخ العراق القديم
المرحلة الاولى

استاذ المادة
الاستاذ المساعد الدكتور
نعيم عودة صفر الزيدي

المحاضرة الاولى

الجغرافية التاريخية :

يمكن تقسيم منطقة *بلاد* وادي الرافدين، والتي تشمل كلٌ من العراق الحديث وأجزاء من إيران وسوريا وتركيا، كما ذكرنا سابقاً، إلى ثلاث مناطق جغرافية ومناخية.

المنطقة الأولى :

تتركز هذه المنطقة في معظمها شمالاً من سفوح جبال زاگروس في شمال شرق العراق، وقد قدمت عدداً من مراكز الاستيطان منذ أقدم المراحل الحضارية، إذ وفرت الملاجئ والكهوف في وديان غرب زاگروس، أماكن مناسبة للاستيطان، إذ توفرت المحاصيل الزراعية البرية والفواكه والحيوانات البرية، وحدث هذا في أواخر العصور الحجرية أي العصر الحجري الحديث. ورغم أن فصل الشتاء كان قاسياً على التجمعات البشرية في تلك الفترة، إلا أن توفر الحبوب الزراعية المحدودة، فضلاً عن توفر الأخشاب والأحجار وبعض المعادن مثل النحاس والقار في المناطق المحيطة في الشمال الغربي، قدمت إمكانية مناسبة لقيام تجمعات حملت نمط وأسلوب العصر الحجري الحديث.

المنطقة الثانية :

تشمل منطقة الهضاب التي تغطي منابع نهر دجلة في سفوح جبال طوروس وتمتد من شمال الخط المفترض بين هيت وسامراء، إضافة إلى السهل الشرقي لنهر دجلة. وتعتبر منطقة الجزيرة هي المنطقة الأقدم، وقد ظلت هذه التسمية إلى الآن، وتضم المنطقة من شمال جبل سنجار، والتي كانت تقسم إلى قسمين، وهي منطقة تعتمد على الزراعة المطرية، والمنطقة التي تقع إلى الجنوب من جبل سنجار هي المنطقة التي وصلتها مواقع العصر الحجري الحديث. وهذه المنطقة كانت تعتمد على الزراعة المطرية بمساعدة الري الاصطناعي، وقد وجدت أدلةٍ عن استيطانٍ كثيف إلى الجنوب من جبل سنجار في عصر(حسونة) في الفترة التي تغطي الألف السادس ق.م. المصادر الحياتية المتنوعة في هذه المنطقة بشكل عام، وفي السهل الرسوبي منها بشكل خاص، مع بعض الري الاصطناعي، يُمكن المستوطنين من الحصول على محاصيل جيدة، فضلاً عن توفر الصخور والأحجار والأخشاب مع توفر الحيوانات البرية، أما المعادن فإنها نادرة، وأبرزها القار المتوفر في هيت والكبريت المتوفر في وادي الثرثار، الذي استعمل لأغراض طبية، وكذلك في استعمال الأصباغ منذ أقدم العصور. وكانت هذه المنطقة مكان ومسرح أحداث وتاريخ الدولة الآشورية في مختلف مراحلها، وإن كانت قد سكنت منذ أقدم العصور. وقد كان يقطع هذه المنطقة طرق برية مهمة منها الطريق الممتد من الشمال إلى الشرق من الهضبة الإيرانية، الذي يبدو أنه استعمل منذ العصور الحجرية الحديثة

المنطقة الثالثة :

وتضم السهل الرسوبي بين نهري دجلة والفرات، وضمت في ثناياها الممالك المعظمة القديمة في بلاد سومر وأكد، وهي موطن الإبتكارات والإختراعات الحضارية المبكرة في تاريخ البشرية، وهناك عدت نظريات في تكوين السهل الرسوبي منها آراء ونقاشات متعددة تناولت التغيرات المستخدمة بشرياً وطبيعياً في نظام الأنهار والجداول في جنوب العراق، وفضلاً عن عرض هذه النقاشات، فإننا سوف نأخذ بعين الاعتبار ما دار من نقاشات حول مسألة أساسية في خلق بيئة أرضية غرينيه ، وهي الدرجة التي تحورت بموجبها المنطقة من أور إلى الجنوب خلال آلاف السنين من خلال الرواسب الغرينيه. وهو موضوع يتعلق بقضية مجاري الأنهار القديمة في هذه المنطقة. إن أول من ناقش موضوع رواسب الغرين في نهر الفرات هو المؤرخ الروماني (بليني الكبير ٢٣ – ٧٩م) وتناول بعد ذلك الرحالة الأوربيين هذه الملاحظات التي دونها المؤلفين الكلاسيكيين، فنشر في عام ١٨٣٥م ، الباحث (تي.سي.بيك) مقالة عن أن رأس الخليج كان في الأصل عند سامراء وصار ينتقل بالتدرج جنوباً نتيجة تراكم الغرين خلال آلاف السنين. وقد أحصت باحثة أسمها (كارتر) معدل الزحف وأنه كان حوالي (٣٠٠ كم) في ما لا يقل عن (٣٤٠ سنة)، وذلك يساوي سرعة ٨٨٢,٣٥ م في السنة الواحدة. واستمرت الدراسات على هذا المنوال حتى جاء المهندس الفرنسي(دي مورگان) هو آثاري عمل في سوسة الإيرانية في مطلع القرن العشرين وأفترض (أنه عندما سار الملك الأشوري سنحاريب في حملة على بلاد عيلام في نحو ٦٩٦ ق.م. وعندما أبحر القائد البحري " نيرخوس " أحد قادة الاسكندر سنة٣٢٥ ق.م. بمحاذاة ساحل سوسيانا أعلى نهر" الكارون " إلى سوسة، كان رأس الخليج يقع شمالاً عند كوت الأمارة تقريباً) . أي أن حدود الخليج الشمالية كانت تمتد في خط وهمي يمتد من بلد على دجلة حتى هيت على الفرات. وهو يرى أن كميات الحصى الهائلة المترسبة على شكل طبقات سميكة بين بلد وسامراء، إنما هي دليل على الخط الساحلي القديم لرأس الخليج، وبفعل الترسبات للنهرين ونهر كارون وروافدهما، وما تحمله الوديان والعواصف الرملية من الجزيرة العربية، بدأت اليابسة بالتكون على حساب انسحاب مياه الخليج، وبلغت هذه الحالة صورتها في حدود الألف الرابع ق.م. إلى مواقع أور وأريدو، وواصل انسحابه في الفترات التاريخية اللاحقة. وقد تبنى هذه النظرية بعض الآثاريين ومنهم (ستين لويد) الذي وضع خارطة للمنطقة في ضوء هذه النظرية، وأعترض آخرون، وشككوا بالنظرية مستندين بذلك إلى بعض معالم الاستيطان القديم التي اكتشفت في أطراف الأهوار وتحت مستوى مياهها، فالمسح الأثري الذي أجراه (جورج رو) لمنطقة هور الحمار وجود خيط من التلال (يمتد في خط مستقيم تقريباً من تل اللحم إلى

نقطة٢٣ ميلاً "حوالي٣٥كم" شمالي البصرة) وهذا يشكل حجة قوية ضد النظرية التي تقول بأن مياه الخليج كانت تغطي هذه المنطقة حتى فترات متأخرة. وإن وجود مواقع مثل تلول الكرباسي واللحم والعقرم وأبو الصلابيخ في منطقة هور الحمار الحديثة يؤكد حقيقة أن هذه المنطقة كانت أوائل الألف الثاني ق.م مأهولة في الوقت الذي كانت هوراً لم تكن مغمورة تحت الخليج. تل الكرباسي الذي يرتفع بما يزيد على المترين فوق خط الماء، فأنه اليوم محاط بالماء، ومع ذلك فإن من الصعوبة تصور موقع مثل هذا الموقع الذي كان يقع على جزيرة في الفترة الكشية لسبب بسيط يدعونا أن نفترض أنه إذا كان الأمر كذلك، فأن تل كرباسي أو في الحقيقة منطقة القطر البحري عامة كان يمكن أن تتخذ مصدراً للماشية والحبوب. وهكذا فإن خط الساحل الذي أقترحه (دي مورگان) في زمن سنحاريب يضع تحت الماء مواقع مثل تل اللحم التي نعرف الآن أنها كانت مسكونة في أثناء الحقبة الآشورية الحديثة، كما أن اكتشاف ختم أسطواني للملك البابلي نبونائيد (٥٥٥-٥٣٩ ق.م) في تل اللحم يؤكد بلا أدنى ريب أن المنطقة كانت مأهولة بعد حوالي ١٥٠سنة من زمن الملك الآشوري سنحاريب، كما أن منحنى سانلاڤيل الذي سوف نعرضه لمستوى البحر يبين أن مستويات البحر خلال الألف الثاني ق.م كانت تقريباً أعلى (أقل من١م) مما هي عليه اليوم. في الوقت الذي كانت في الفترة الآشورية الحديثة وخلال القسم المتأخر من الفترة الفرثية (القرنان الأولان الميلاديان)، على النقيض من اعتقاد دي مورگان أوطأ كثيراً من المستويات الحديثة. فضلاً عن اكتشاف موقع (تل الصوان)على ضفاف دجلة قرب سامراء الذي يعود تاريخه إلى حدود الألف الخامس ق.م. وبذلك ينافي وجوده ما قيل عن امتداد مياه الخليج حتى حدود سامراء. عالم آخر هو الألماني (مايسنر) الذي دعا إلى أن رأس الخليج من الماضي السحيق كان في مكان ما في منطقة أهوار (الحمار) ومع هذا فأنه أعترف أنه من غير الممكن تعيين المكان المضبوط لخط الساحل القديم باستعمال حسابات غير أكيدة لترسبات الغرين السنوية. وقد ظلت نظرية الزحف للدلتا سائدة خلال النصف الأول من القرن العشرين، وقد أعاد أشهر علماء الآثار (گوردن تشايلد) في الخمسينيات من هذا القرن، صياغة نظرية (دي مورگان) إلى أن جاء جيولوجيان بريطانيان هما(ليز و فالكون) بنظرية ثورية في هذا المجال بينا فيها أن الإنخساف على مر الزمان عطل تأثيرات الغرين و لم يجدا حسب نظريتهما أي دليل تاريخي مقبول على أن رأس الخليج كان في وقت من الأوقات أبعد كثيراً إلى الشمال من موضعه الحالي. وقد تبنى الكثير من العلماء والآثاريين هذه النظرية. وفي عام ١٩٧٥ عاد الآثاري (هنريك لارسن) إلى أحياء نظرية (دي مورگان)مرة أخرى، بالقول أن الوضع المورفولوجي(شكل بنية المكان). في جنوب بلاد الرافدين كان أكثر تعقيداً مما زعم أي من أسلافه ، فهو قد نظر إلى المدى الواسع من التقلبات في ارتفاع مستوى البحر الذي بداء في حوالي 17,000 ق.م. حيث كان الخليج العربي مجرد منخفض طويل ضيق يحمل الدفق

المشترك لنهري دجلة و الفرات في شكل نهر إلى بحر العرب. وأن مستويات المياه في البحر قد ارتفعت على نحو متقطع في ما بين 12,000–8,000 ق. م. وأن الارتفاع عندما وصل إلى ما يقارب المستوى الحالي أو أعلى منه، فأنه أزاح خط الساحل داخل البر إلى هور الحمار. وأنه يمكن تفسير الترسبات الغرينية على سطح بنية هور الحمار (مع ملاحظة أن هور الحمار تشكل حديثاً في القرن السابع الميلادي وفقاً لبعض الباحثين) والجهة المواجهة للبحر من هور الحمار، بتقدم الدلتا بأتباع ما بلغه مستوى مقارب لسطح البحر نحو ٤٠٠٠– ٣٠٠٠ ق.م. وهذا يفترض ١٥٠–١٨٠كم في الأقل من زحف الدلتا في أثناء ال٥٠٠٠ سنة الماضية. وهكذا فأن زحف الدلتا حدث بنسبة ٣٠ – ٣٦م في السنة، وفي رأيه فأن (النصوص المسمارية) التي تربط مدن الألف الثالث ق.م. أور وأريدو بالبحر، يبدو إنها أصح مما كانوا يعتقدون سابقاً. وقد تبنى فرضية الزحف الحديث هذه بعض الباحثين ومنهم (روبرت آدمز) و(هوت) و(سانلافيل) الذي أعاد النظر في مسألة الدليل المورفولوجي وربطه بالمعطيات المتوفرة عن تغيرات مستوى البحر في الخليج وتوصل إلى نتيجة، أن خط السواحل في الخليج تغير في الواقع نتيجة تغير مستوى البحر وزحف الدلتا والانخساف وأهم معطياته :

١ – أن المستويات البحرية أوطأ ب ١٥ –٢٠ م عن ما هي عليه الآن في بداية عصر العبيد في نحو 5,500 ق.م، لتبلغ المستويات الحديثة تقريباً في نهاية عصر العبيد في حوالي 3,800 ق.م، وما بعدها .

٢ – استمر مستوى سطح البحر بالارتفاع ليصل إلى أعلى مستوى نحو١ –٢ م فوق المستوى الحديث في نحو 3,500 ق.م وما يليها .

٣– تراجع إلى مستوى البحر الحديث في نحو 2,800 ق.م وما بعدها .

٤ – ارتفع مستوى البحر إلى المستويات الحالية في نحو 1,000 م .

وبين الباحث (هانز نيسن) ، أن مستوى البحر كان أعلى من الآن بنحو٧٥، ٢ م في فترة العبيد، والتي جعلت كثير من أقسام جنوب بلاد وادي الرافدين غير صالحة للسكنى، حتى حدث انحسار في نحو 3,500 ق.م .أدى إلى إزالة الماء عن هذه الأقسام وخاصة السفلى منها. إلا أن الباحثين (جون وديفيد اوتس)،إعترضا على هذا الرأي، كما أنه يناقض ما أشار إليه(سانلافيل)، من أن مستوى في كل عصر العبيد كان أخفض مما هو عليه الآن، وإن هذا الرأي لا يمكن إيراده لتفسير غياب الاستيطان. وبكلمات أخرى، فأن المنطقة لم تكن واقعة تحت الماء قبل الانحسار الذي افترضه (هانز نيسن) في نحو ٣٥٠٠ – ٢٢٠٠ ق. م . وارتفاعه نحو ٠،٥ – ٠،٨ م فوق مستوى البحر الحديث في نحو ١٦٠٠ – ١٢٠٠ ق . م ومن الواضح إذا أهملنا ترسب الغرين المذكور أعلاه، واستذكرنا ارتفاع التربة البكر في الوركاء، أنها نحو ١م فقط، فإن التغير في مستوى سطح البحر إلى ارتفاع ١م في منتصف الألف الثالث ق.م يمكن نظرياً،

في غياب العوامل الأخرى المنخفضة، أن يكون قد جعل كثير من جنوبي بلاد وادي الرافديني تحت الماء. وهذا في الحقيقة ما أظهره(سانلافيل) مردداً ما أورده (لارسن) في بيانه، أن المصادر المسمارية التي تربط أور وأريدو بالماء هي صحيحة، في إيراد هذا الاقتراح، ولم يوجه أي اهتمام إلى الحجج المؤثرة التي أوردها الباحث (وتزولت)، الذي ذكر بأنه لو كانت كلٌّ من مدن أور و أريدو وتلوّ واقعة على لسان من الخليج داخل البر، فإن المرء يتوقع وجود كميات ذات شأن من بقايا أسماك المياه المالحة في جميعاً. وقد أظهرت دراسة حديثة لبقايا أسماك من مواقع في جنوبي الرافدين (أبو الصلابيخ ونفر و الوركاء و إيسن وغيرها)، أن جميع هذه المواقع فيها معطيات عن وجود أسماك المياه العذبة بنسبة أكبر من أسماك المياه المالحة. عموماً فأن صيادي الأسماك كانوا في فترة أور الثالثة مثلاً، يصطادون في الأنهار والأهوار وحتى الخليج، وكانوا جميعاً تحت سلطة الدولة .

المحاضرة الثانية

تعريف مصطلح العراق

١ – تمهيد :

قبل البدء بعرض تفاصيل التطور الحضاري في بلاد الرافدين، لابد من وضع تعريف لبعض المصطلحات التي سترد في سياق متابعة هذه المراحل. فمصطلح بلاد (وادي الرافدين=(Mesopotamia، أصله لاتيني يتكون من مقطعين هما(Mesos=Middle = وسط) و(Potamos = River=النهر)، ويستعمل اليوم للإشارة إلى منطقةٍ تمتد في كلٍّ من العراق الحديث مع عدد من المناطق في شمال شرق سوريا، وأخرى في جنوب شرق تركيا وغرب إيران. أما الاستعمال الحديث لمصطلح (بلاد وادي الرافدين الكبرى) فإنه ينطبق على المناطق التي تفصل بين الأنهار الكبرى دجلة والفرات وگارون.

أما في العصور القديمة فإن المصطلح أُستعمل للإشارة إلى الولاية التي شيدها الإسكندر المقدوني (٣٣٣ –٣٢٣ ق.م) والتي ضمت فيما بعد ولايتين أخمينيتين، وبعد ذلك امتدت إلى مقاطعة الإمبراطورية الرومانية فيما يسمي اليوم منطقة جنوب شرق تركيا الممتدة من الجانب الأيسر من نهر الفرات في منطقة(سامسات = Samsat) إلى دجلة في (سيزار =Cizre). عالم المسماريات الشهير (أدم فلكنشتاين) أعاد هذا المصطلح إلى عصور قديمة سابقة مستشهداً بالمصطلح الأكدي (بيريت نارم =birit–narim) أو(مات بيرتم = Mat birtim أو بيريتوم =biritum) والتي تعني بين النهرين أو أرض النهرين أو أنه يشير إلى(وسط النهر) أكثر منه (بين النهرين). ويقول إن إسم بلاد الرافدين يميز بدقة أكثر على أنه الأرض التي تنحصر بين ثلاث جوانب من الإلتواء الكبير لنهر الفرات في تركيا وسوريا، ممتداً حتى الشرق كما في الروافد

في أقصى الغرب من نهر الخابور. وعليه فإن استعمال المصطلح ليعني الأراضي بين دجلة والفرات ربما يكون قد حدث مع وصول القبائل الآرامية في أواخر الألف الثاني ق.م. ثم تبنى استعماله الكتاب اليونان ثم الرومان(الكتاب الكلاسيكيون) للدلالة على المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات حتى حدود بغداد جنوباً. وشاع استعماله بعد ذلك واستخدم للدلالة على جميع المنطقة الواقعة بين النهرين من الشمال وحتى الجنوب. وساعد في شيوع استخدامه في الكتب والمؤلفات الأوربية ترجمة كتاب العهد القديم إلى اليونانية واللغات الأوربية، إذ ترجم فيها مصطلح(آرام نهرايم) في سفر التكوين (الإصحاح ١٠:٢٤) الذي يعني (آرام نهرين) على هيئة(ميزوبوتاميا). غير أنه من المرجح أن المقصود من هذا المصطلح في كتاب العهد القديم هو للدلالة على الإقليم المحصور بين نهري الفرات والخابور أو الخابور و البليخ أو النهرين كليهما ونهر الفرات.

فالمصطلح يعني للبعض وخاصة لمن له معرفة بالتحركات الاستعمارية البريطانية في الشرق الأدنى القديم خلال الحرب الكونية الأولى، يعني لهم جميع المنطقة مابين وعلى جانبي نهري دجلة والفرات من الخليج إلى الموصل. بينما يعني لآخرين، وبشكل خاص للمتخصصين بالدراسات الكلاسيكية، الجزء الشمالي الغربي من هذه المنطقة فقط.

أما من الناحية الجغرافية فأن المصطلح اليوم يمتد ليشمل جميع الأراضي التي تقع بين دجلة والفرات وحتى منطقة الخليج. الباحثة الأمريكية(زينب بحراني) ناقشت جميع الآراء التي قيلت في هذا المصطلح، ورأت أن الكتاب الأوربيين الكلاسيكيين إستعملوا هذا المصطلح لغايات سياسية، وإن في استعمالهم له نوع من الإجحاف بحق أهل المنطقة، ومحاولة لفصل حاضر هذه المنطقة عن ماضيها. عموماً فأنه حتى في حالة استعماله من قبل اليونان والرومان، فإنه كان يؤشر حالة وأغراض سياسية، لأنه يحدد معالم التنافس بينهم.

مصطلحات (الشرق الأدنى + الشرق الأوسط +غرب آسيا +جنوب غرب آسيا) .

بدءاً نقول أن مصطلح (الشرق =Orient) لم يكن مصطلحاً جغرافياً مادياً، مثل مصطلح (الشرق الأدنى القديم =The Ancient Near East) الذي يضم نفس المنطقة. فالشرق إذن ليس له تميز أو تحديد جغرافي، وهو في الاستعمال اللغوي يضم الشرق الأدنى مع مصر وإيران، فحدوده الشمالية تضم البحر الأسود والقوقاز وبحر الخزر(بحر قزوين في شمال إيران)، ويكون المحيط الهندي حدوده الجنوبية الشرقية. بشكل عام فإن حدوده ليست ثابتة أو مستقرة في علاقتها بالحضارات المجاورة في البحر الأبيض المتوسط، وشمال شرق أفريقيا وفي شرق إيران.

أما مصطلحات(الشرق الأدنى= Near East) و (الشرق الأوسط =Middle East) فهي مصطلحات حديثة يعود استعمالها إلى القرنين التاسع عشر والعشرين، وقد أُبتكرا من قبل الساسة الأوربيون والأمريكيون، لغرض تحديد أجزاء كانت قد جمعت سابقاً تحت مصطلح (الشرق=

Orient) مستوعباً جميع الفترات ومغطياً كلٍّ من آسيا من القسطنطينية وحتى البنجاب والكثير من الجوانب الأخرى. فالشرق الأدنى الذي لم يعد يستعمل بشكلٍ واسع هذه الأيام، قد استعمل لتحديد بقايا الإمبراطورية العثمانية في السواحل الشرقية من البحر الأبيض المتوسط. في حين أننا حينما نتحدث اليوم عن الشرق الأوسط فأننا نميزها باعتبارها نفس هذه المنطقة الجغرافية. عموماً فإن المصطلحين كليهما لا يتطابقان بشكل دقيق. إذ يمكن تحديد الشرق الأدنى بأنه المنطقة الممتدة من سواحل بحر إيجة في تركيا إلى مركز إيران(وسطها)، ومن جنوب الأناضول إلى البحر الأحمر. أما مصر التي يتداخل تاريخها مع تاريخ الشرق الأدنى في أوقاتٍ متعددة، فأنها يمكن أن تدخل تحت هذا المصطلح في حدود اللف الثاني ق.م. الباحثة (زينب بحراني) ترى إن استعمال مصطلح(ميزوبوتاميا) يغطي ماضي ما قبل الإسلام في المنطقة، ومصطلح (الشرق الأوسط) يغطي الحاضر، وبشكل خاص الحاضر الإسلامي. وترى هذه الباحثة أن في هذا محاولة من قبل المستشرقين لفصل الماضي عن الحاضر كما أشرنا.

أما مصطلح (جنوب غرب آسيا) أو(غرب آسيا) المستعمل من قبل الباحثين الأكاديميين للدلالة على المنطقة الجغرافية الممتدة بين شرق البحر الحمر ووادي السند، وبين البحر الأسود وبحر الخزر وجنوب الجزيرة العربية، فإنه كان نتيجة لمحاولة صريحة لتوظيف المصطلح وتجريده قدر الإمكان من الحالة السياسية الفضفاضة. عموماً فإن هذه المصطلحات ربما تعني مناطق مختلفة في الفترات التاريخية المختلفة لأن بعض المناطق قد تضم أو تهمل في حقل الدراسة الآثارية في الفترات المختلفة. ففي الفترات المبكرة (العصور الحجرية)، في مرحلة المستوطنات القروية الأولى يقتصر التركيز على (الهلال الخصيب) وحده تقريباً، وهو المتمثل بالسهول والسفوح التي تشكل نصف دائرة تحيط بها جبال زاگروس في شرقي وادي الرافدين، وسلاسل جبال طوروس وأمانوس ولبنان في الغرب. في حين لا تنال أجزاء مهمة من أطراف هضبة الأناضول المطلة على بحر إيجة، الإهتمام عند دراسة هذه المنطقة، وتعامل كجزء من الحضارات الإيجية والإغريقية والبلقانية. وربما لم يكن ساحل البحر الأسود في أناضوليا قبل الوجود الإغريقي فيه آهلاً بالسكان إلا في حدود ضيقة. أما المنطقة التي تقع في شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية، فقد كشفت عن طبقات مختلفة من حضارات ما قبل التاريخ ترقى بتاريخها إلى العصر الحجري الحديث (Neolithic) والعصر الحجري المعدني(Chalcolithic) في حوالي منتصف الألف السادس ق.م. أما حدود المنطقة الشرقية، فإنها تتذبذب بين مد وجزر في الأراضي الإيرانية، إذ كشفت التنقيبات عن بعض الفترات في حين لم تكشف عن فترات أخرى. عموماً كان غرب آسيا مقسماً إلى أقاليم طبيعية ذات مساحات محددة في معظم الأحيان وتأثير ذلك على التاريخ المبكر لهذا الجزء من العالم كان واضحاً، فلم يكن هناك إلا وحدات عرقية وسياسية محددة في المناطق المحددة بالجبال. ولقد تمكنت ثلاث اقاليم طبيعية أكثر اتساعاً وأقل عوارض من تكوين دول

كبرى هي بلاد الرافدين (وبخاصة بلاد آشور)،وأواسط الأناضول، والهضبة الإيرانية. وهناك منطقة منفردة هي حزام السهوب شبه الصحراوية تتوسط الهلال الخصيب والهضبة العربية، وكانت هذه المنطقة خلال جميع الفترات المعروفة لدينا موطن الأقوام السامية الرعوية المتنقلة والتي كانت دائمة الحركة. أما قلب الشرق القديم، حيث دخلت عصور ما قبل التاريخ لأول مرة في العصور التاريخية، فيتمثل حالياً في السهل المنخفض بين دجلة والفرات، أي المنطقة المحصورة بين بغداد الحديثة ومصب النهرين في الخليج تقريباً، وربما كان المصب في العصور القديمة يقع إلى الشمال مما هو عليه الآن،(ينظر موضوع زحف الدلتا). ولكن مع كل ما عرضنا فأن هذه المنطقة الكبيرة تظل بحاجةٍ إلى مصطلحٍ ما، يمكن أن نتفق عليه جميعاً، باعتباره منطقة جغرافية محددة. وعليه فأن مصطلح (ميزوبوتاميا = بلاد الرافدين) هو المصطلح الوحيد الذي يمكن تداوله وفهمه بسهولة من قبل الجميع.

العراق الحديث .

مصطلح العراق هو الآخر يكتنفه شيء من الغموض، فالبعض يستعمله عند الإشارة إلى العهود القديمة ليعني جميع المنطقة الواقعة ضمن حدود الدولة الحديثة التي تحمل هذا الاسم، غير أن آخرين من المختصين بعلوم اللغة العربية يستخدمون هذا المصطلح بمعنى أضيق، أي مقصوراً على الدولة العراقية الحديثة التي قامت في عام ١٩٢١م. وأختلف الباحثون أيضاً بشأن أصل كلمة (عراق)، فمنهم من يرى أنها ذات أصل عربي بمعنى (الشاطئ) أو(حافة الجبل). ومنهم من يرى أن أصل الكلمة فارسي بمعنى (الساحل) وأن كلٌّ من كلمة (عراق) و (إيران) مشتقتان من أصل واحد هو (إيراك). ويرى آخرون أن الكلمة ربما تعود بأُصولها إلى بعض الأصول العراقية القديمة، إذ قد تكون مشتقة من الجذر اللغوي الذي اشتقت منه كلمة (اوروك) أو (أونوك) وهو الاسم الذي أطلق على مدينة الوركاء الشهيرة، والذي يدخل في تركيب أسماء المدن العراقية القديمة الأخرى. فضلاً عن ذلك جاء في نصوص العهد الكشي = العهد البابلي الوسيط، ذكر إقليم على هيئة (إريقا). وقد شاع مصطلح العراق منذ القرنين الخامس والسادس الميلاديين للدلالة في بداية الأمر على القسم الشمالي من العراق الحديث ، ثم أطلق بعد ذلك للدلالة الوسطى والجنوبية، وتحديداً في أواخر العصر الساساني، وكان يتم التميز بين عراق العرب وعراق العجم (جنوب إيران). وامتد مدلول المصطلح في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين ليشمل ما جاور العراق من المناطق الجبلية في إيران وحتى همدان.

وأطلق على هذه البلاد أيضاً مصطلح (بلاد بابل) ويعني جغرافياً الجزء الجنوبي من العراق، أو بلاد ما بين النهرين القديمة، ويضم الأرض من شمالي مدينة بغداد إلى رأس الخليج، ويعكس هذا المصطلح تاريخياً توحيداً متأخراً نسبياً للبلاد تحت حكم سلالة بابل الأولى، في فترة مبكرة

من الألف الثاني ق.م. وإن كانت الكلمة نفسها(بابل) تعود إلى أصل أحدث من زمن السلالة. وسمي الجزء الشمالي من هذا القسم باسم(أكد) منذ عصور مبكرة جداً (كزي –يوري) في السومرية أو (يوري)، وأطلق على القسم الجنوبي منها اسم(كي– إين–گي/ كينگر=Kienger). أما إلى الشمال في وادي دجلة في منطقة نينوى القديمة فسمي ذلك القسم باسم (بلاد آشور) في أوقاتٍ لاحقة، وأطلق عليها البابليون اسم (سوبارتو).عموماً هذه الأسماء غالباً ما استخدمت بتصرف وحسب الوضع السياسي، وسوف نفصل هذه القضايا كلٌ في مكانه المناسب .

المحاضرة الثالثة

مظاهر البيئة الطبيعية في العراق

أ – نهر دجلة والفرات :–

ارتبط نشوء حضارة بلاد النهرين منذ البداية بوجود النهرين العظيمين دجلة والفرات ورافدهما ، فعلى ضفافهما تأسست القرى الزراعية الاولى، وكانت الزراعة من اهم الحرف الاقتصادية لأهل بلاد النهرين فقد مهدت الحياة الزراعية في مراحلها المبكرة السبيل الى قيام احد الحضارات البشرية في العالم ، حيث كان للنهرين اهمية كبيرة في الري والمواصلات والتجارة، ونقل التأثيرات الحضارية، وقد أضفى العراقيون القدماء على النهرين طابع التقديس والتعظيم.

نهر دجلة:

يبلغ طوله حوالي ١٧١٨كم منها ١٤١٨كم داخل ارض بلاد النهرين وفي الأكادية باسم ادجلات (idigna) وكذلك اسم ((idiglatumبمعنى الراوي ، وتقع منابعه في مرتفعات تركيا الجنوبية الشرقية ، وتتكون من عدة روافد يجري بعضها من المرتفعات القريبة من بحيرة (فان) وتؤلف نهر (يونان صو) وبعضها من الجبال الغربية من بحيرة (كولجي) تؤلف معاً نهر (بوطمان صو) وبالتقاء النهرين يتكون المجرى الرئيسي الذي ينحدر جنوباً في شرق ويدخل ارض العراق القديم قرب بلدة فيشخابور حيث يصب في اول روافده " الخابور".

ويلتقي نهر دجلة الغربي ودجلة الشرقي في موقع على بعد ١٢٠كم عن الحدود العراقية ،فيتجه النهر نحو الجهة الجنوبية الشرقية ،وقبل دخوله الاراضي العراقية يكون النهر بين تركيا وسوريا ، وبعدها يدخل النهر الاراضي العراقية شمال قرية فيشخابور بأربعة كيلو مترات عند منسوب ٤٥٠م فوق مستوى سطح البحر ،ويبلغ طوله زهاء (١٧١٨كم) يقع منها (١٤١٨) داخل العراق، وتغذي نهر دجلة بعد دخوله الحدود العراقية من ضفته اليسرى أي من المناطق الجبلية العالية في شرقة وشماله الشرقي خمسة روافد رئيسية تمونه ب٧٧و٦٥%من مجموع مياهه السنوية وهذه الروافد هي ابتداء من الشمال الى الجنوب الخابور والزاب الكبير والزاب

الصغير والعظيم وديالى وتختلف هذه الروافد في اطوالها وكمية مياهها ،ويجتاز اراضي متموجة الى قرب تكريت حيث يبدأ السهل الرسوبي ودلتا النهرين ، اذ يقطع النهر سلسلة جبال حمرين عند الموضع المسمى الفتحة ويستمر النهر بجريانه حتى يمر بسامراء ويتجه الى مدينة بلد ، وعند التقائه برافدة العظيم في منتصف المسافة بين مدينة بلد ومدينة بغداد ، وتشير الادلة الاثارية على ان نهر دجلة قد غير مجراه قليلاً الى جهة الغرب في منطقة نينوى ونمرود ،اذ كانت مدينة النمرود تقع على النهر الا ان ابتعاد مجرى النهر غربا الى مسافة ٥كم ويمر من قرية السلامية الحديثة التكوين ، ولكن المنقبون وجدوا حديثا بقايا رصيف ميناء من الحجارة الضخمة المهندمة والواقعة على النهر عند مدينة نمرود القديمة ،مما يدفعنا الى التحقق من عملية التغير في المجرى على مر العصور التاريخية ، وقد اكدت الدراسات الحديثة الى ان نهر دجلة قد مر بعدت اطوار من التغير خصوصاً في المنطقة المحصورة بين سامراء وبغداد ، اذ يعتقد ان الطور الاول كان يقع الى الغرب من مجرى نهر دجلة القديم ومن المحتمل انه كان يجري الى الغرب من قناة دجلة – الثرثار وكلما اتجهنا الى الشرق من ذلك اذ امتازت المجاري القديمة لنهر دجلة بالزحف وتغيير مجاريها من الاتجاه الغربي الى الاتجاه الشرقي والمتمثل بمجرى نهر دجلة الحالي ، اما الطور الثاني يقع الى الشرق من المجرى الاول ، وهو مجرى واسع وكبير ،تعرض الى فترات مطيرة وجافة ، اما خلال مددت الجفاف فالنهر يبدو ضيقاً وتكثر فيه الالتواءات المتعمقة ،وهذا يدل على ان النهر تغيراته جانبية وليس انتقالية من مكان الى اخر ، ويمكن ارجاع عمره الى مدة مندل ،اما الطور الثالث يقع الى الشرق من المجرى الثاني اذ يجري نحو الجنوب الشرقي ، فالجنوب ثم الجنوب الغربي ، ويمكن ارجاع زمن تكوينه الى مدة مندل – رس.

فيما يكون الطور الرابع للنهر يسير محاذياً لمجرى دجلة العباسي ،يبدأ من جنوب سامراء متجهاً نحو الجنوب الشرقي بالقرب من بلد ثم مدينو الفارس وتظهر معالمة الجنوبية محاذية لمدينة بغداد من جهة الغرب .

اما الطور الخامس وهو المجرى الذي كان يجري باتجاه مدن العلث والحظيرة والصوامع وعكبرا واوانا وبصرى وبزوغي والبردان والمزرفة وقطربل، وكان يسير من نهر دجلة في الوقت الحاضر جنوب حصن القادسية ، ويسير باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي وينعطف انعطافه الكبير عند مدينة بلد ، بعد ذلك يسير باتجاه جنوب شرق ثم باتجاه الجنوب ويلتقي بنهر العظيم القديم .

واخيراً الطور السادس وهو مجرى النهر الحالي وهو لايتجاوز عمره ٨٠٠سنه من الان وكان نتيجة تغير المجرى العباسي من جهته الغربية الى الجهة الشرق ، وفي حقيقة الامر كما توفره عدد من الدلائل التاريخية والحضارية التي تؤكد ان المجرى الغربي هو المجرى الاصلي

الذي كان يجري في هذه المنطقة لمدة طويلة جداً وعلى الاقل منذ العهد السومري القديم ٤٠٠٠- ٣٥٠٠سنة ق.م .

وفي ضوء الدراسات التاريخية وخاصة فيما يتعلق بالعمر الزمني لسد النمرود المقام على نهر دجلة والذي يرجع في تاريخة الى ٣٠٠٠سنه ق . م ، والذي يعني بان مجرى نهر دجلة موجود منذ ٥٠٠٠سنه ق.م ، وكذلك التفرعات النهرية التي تأخذ مياهها من نهر دجلة العباسي في نقطه تقع شمال سد نمرود القديم ،وما يهمني من هذا هو ان المنطقة التي يمر بها نهر دجلة والمحصورة بين مدينة سامراء وبغداد هي تقع ضمن منطقة السهل الرسوبي والذي تكون بفعل الرواسب الغرينية التي تحملها الانهار في فيضاناتها المستمرة عبر التاريخ الطويل لبلاد الرافدين ، ولقد وجدة التلول الاثرية على ضفتي نهر دجلة وهي تعود بتاريخها الى الالف السادس والخامس قبل الميلاد اضافه الى مواقع تعود الى بداية الاستيطان في هذه المنطقة أي الى العصر السومري وكذلك قسماً منها الى العصر البابلي القديم واستمر السكن فيها الى العصور الاسلامية الحديثة بهيئة قرى ومدن.

نهر الفرات:-

ورد اسم الفرات في النصوص المسمارية باسم (بورانن) ((buranun أو " بوروننا ((buranuna ويرادف في اللغة الاكادية (بوراتي) (burati)او (بوراتوم) (puratum) وجاء منها اللفظ العربي " فرات " الذي يعني الماء العذب، ويختلف الفرات عن دجلة لقلة تقلباته وقت الفيضان، وزيادة مساحة حوضه عن دجله ، وروافده ٣٤٠٠٠٠كم٢ وهذا يعني انه يغمر مساحات اوسع من الاراضي ويستفيد منه عدد كبير من السكان.

وساعد النهران وفروعهما على تسهيل الاتصالات المكانية بين أقسام بلاد النهرين وخارجها ، مما أتاح لهم توفر الفرص لصناعة السفن المختلفة غير ان الملاحة فيهما لم تكن بسهولة الملاحة في نهر النيل ، لشدة انحدارهما وسرعة جريانهما في الاجزاء الشمالية منهما وبطئ جريانهما وكثرة منافعهما في الجنوب.

ونظرا لطبيعة امتداد نهر الفرات شمالا وشمال غرب حتى يقترب من مناطق الجبال اللبنانية ،وجد العراقيون ضالتهم من المواد الاولية كالأخشاب والاحجار والمعادن ، كما ان انعطافه النهر في اقسامه العلوية نحو الغرب تقلل المسافة الارضية بينه وبين البحر المتوسط لذلك يشكل في امتداده هذا حلقة وصل جيدة للنشاطات التجارية في البحر المتوسط كما اتصل النهران بالخليج الفارسي فيما يسمى بشط العرب . .

المناخ والبيئة وأثرهما:-

تشابه المناخ والحياة النباتية في العراق القديم الى حد كبير مع الوضع الحالي لهما، وذلك اثناء العشرة الاف سنة الاخيرة في منطقة الشرق الادنى القديم ، غير انه قد حدثت بعض

التغيرات البيئية نتيجة لجفاف البحيرات والعيون وتحرك الكثبان الرملية ، بالإضافة الى مجاري الانهار ،وتدخل الانسان بالرعي والزراعة وتنظيم القنوات ، وقد ادى تنوع موقع بلاد النهرين الى تنوع المناخ طبقاً لطبيعة كل جزء من ازائه، ونظراً لتبدل المناخ في العصور الجيولوجيا مما كان له اكبر الاثر في نشوء الحضارة الاولى .

وقد كفل نهرا دجلة والفرات لأهل بلاد النهرين الاستقرار في المعيشة مما ساعدهم على تكوين مدنياتهم الاولى في عصور مبكرة ، كما عمل النهران وروافدهما على تيسير الاتصال بينهما ، وبالرغم من ذلك لم تكن الملاحة مأمونة ، نتيجة شدة انحدارهما وسرعة جريانهما .

وبالتالي فان عنف البيئة الطبيعية التي نشأت فيها حضارة بلاد النهرين كان لها اثر كبير في حياة السكان ، حيث اثر ذلك في معتقداتهم وافكارهم عن الكون ، والالهة والصراع بين قوى الخير والشر وخلق الانسان ، مما كان له اكبر الاثر في نظمهم الاجتماعية والمعتقدات والطقوس الدينية . ولما كان انسان بلاد النهرين قديما يعتمد على الزراعة آنذاك ، فقد اتجه الى بذل الكثير من الجهد في محاولة التقرب الى قوى الطبيعة لصالح حياته الزراعية ، فكان من نتيجة ذلك ان تأثر فكره بظاهرة عدم الاستقرار البيئي، وامتد تأثير ذلك الى معتقداته الدينية، فصور وجسد القوى التي اعتقد بانها كانت تسيطر على حياته، وجعلها الهة من الواجب عبادتها والتقرب اليها ابتغاء مرضاتها ليأمن شرها ، ولهذا اعتبر الشمس الهاً والكواكب الاخرى الهة ، كما جسد الظواهر الطبيعية الاخرى وعدها من جملة الالهة ، وادت ظاهرة الامتداد الطولي والعرضي لبلاد النهرين الى قيام وحدات سياسية وحضارية كثيرة ومتفرقة عُرفت بدويلات المدن، كان منها حاكمها الخاص ، مما قلل بإحساسهم بأهمية الوحدة السياسية ، بل الى زيادة المشاحنات حول الحدود السياسية او توزيع مياه الري ، فتأخرت الوحدة الكاملة حتى عصر الاكديين . وجاورت بلاد النهرين من الغرب والجنوب صحراوات شاسعة لم تخل من نفع كبير، ومن متاعب كثيرة ، كان من منافعها ان قامت على اطرافها اسواق تجارية ارنجة وخرجت منها هجرات كبيرة على فترات متقطعة ادت الى امتزاج دمائهم مع سكان البلاد ،وآدت الى تنوع في حضاراتهم .

وكانت بلاد النهرين غنية بالقار والطمى ، والمنتجات الزراعية ، الا انها تفتقد الى خامات المعادن والحجر الصلب والخشب الجيد وتلك المواد كانت تستورد من الخارج ، ومع أن بلاد النهرين كانت لايوجد بها معدن النحاس الا أن سكانه استطاعوا استخدامه بصورة كبيرة في حياتهم وحضارتهم منذ العصر الحجري المعدني .

وفي ايران كانت توجد مناطق متعددة تمد بلاد النهرين بالاحجار الصلبة والاحجار شبه الكريمة ، أما " ماجان " (عمان) فكان يجلب منها حجر الديوريت الاسود الجميل الذي استخدمه النحاتون في عصر سلالة " اور الثالثة " كما جلبوا الخشب من المناطق القريبة من جبال "

زاجروس" وجلب خشب الارز من " لبنان " او من " الامانوس " اما الانواع الاخرى فكانت من البلد المهول المسمى " ملوخا " ربما كان الاسم القديم " للهند".

المحاضرة الرابعة

مصادر دراسة تأريخ العراق القديم

يمكن تقسيم مصادرنا لدراسة تأريخ العراق القديم تحديداً والشرق الأدنى عموماً إلى مجموعتين رئيستين أولاها: البقايا المادية التي خلفها الإنسان كالمباني والآلات والأدوات والفنون (منحوتات، تماثيل، رسوم) وثانيهما: المخلفات الكتابية النصية ومنها ما خلفه لنا الأقدمون من كتابات بلغاتهم القديمة فضلاً عن الكتابات الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) والكتاب المقدس بعهديه القديم (التوراة) والجديد (الإنجيل) وكتب البلدانيين والرحالة والمستشرقين وغيرها من المدونات.

اولاً – المصادر المادية :

ونقصد بها كافة أشكال المخلفات الأثرية التي تركها الناس من خلال نشاطاتهم المتعددة ولكافة الفترات التاريخية، وتشكل هذه المخلفات الأساس المتين لدراسة الماضي، لأنها بقايا الشواهد الحية على حياة الناس ونشاطاتهم وأفكارهم وعباداتهم وفنهم وعماراتهم وغير ذلك. وتعتمد المخلفات المادية بكافة أشكالها سواءً منها الآلات والأدوات الحجرية والبيتية وأدوات الزينة الصغيرة، أو مجموعة المشيدات والمدن والأسوار والقلاع والسدود الضخمة. فكل أثر مادي يكشف عن جانب معين من حياة الناس وتفكيرهم ومستوى حياتهم الاقتصادية ومدى نضج حضارتهم وتخلفها. ونظراً لكون المخلفات المادية تمثل الناس القدماء أنفسهم فإنها في حالة توفرها تعد من أصدق المصادر وأدقها وأقربها إلى الواقع التاريخي لذا تعتمد في مقدمة المصادر التاريخية.

وقد كشفت لنا التنقيبات التي جرت في منتصف القرن التاسع عشر عن هذه المخلفات المادية، فقد كشف بوتا ولايارد مجموعة مهمة من القصور الآشورية، ثم إنتقلوا للكشف عن أطلال مدن الجنوب الرافديني من خلال سبر أغوار مدن بابل ولگش. وكان للتنقيات التي جرت في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الأثر الطيب في تزويدنا بمجموعات كبيرة من الآثار المادية والكتابية في خرائب المدن العراقية القديمة، لعل من أبرزها المقبرة الملكية في مدينة أور

التي كشفها السير ليونارد ويللي، فضلاً عن الزقورات والمعابد والمنحوتات المختلفة من أنصاب وتماثيل وأختام وغيرها، وجميعها تظهر لنا صورة مشرقة من ماضٍ زاهرٍ وفعالٍ ومؤثرٍ في الحياة الإنسانية.

ثانياً – المصادر المدونة :

وتشمل كافة المدونات التي وصلتنا من مراكز الحضارات القديمة أو عنها، وتبدأ المصادر المدونة بتزويدنا بالمعلومات مع بدأ ظهور الكتابة لأول مرة في تاريخ البشرية وتحديداً في مدينة الوركاء في الطبقة الرابعة أ في حوالي ٣٢٠٠ ق.م. وتشكل المصادر التي وصلتنا من المراكز الحضارية قيد الدراسة مصادر أساسية وهامة، ويمكنها أن توضح أبعاد الصورة المستنتجة عن المخلفات المادية كما أنها تحل محلها في حالة غياب المخلفات. وسوف نعرضها وفقاً لقدمها وأهميتها :

١. المصادر المسمارية :

تعد المصادر المسمارية بجميع أشكالها وتعدد موضوعاتها من أقدم الوثائق التي وصلتنا من مراكز الحضارات القديمة. والخط المسماري هو الخط الذي اخترعه سكان العراق القدماء، وقد جاءت هذه التسمية من ترجمة المصطلح الأنكليزي– اللاتيني (Cuneiform =الخط الشبيه بالاسفين أو المسمار) وذلك لأن الشكل الذي وجده الباحثون في الكتابات الآشورية على التماثيل والحجر كان في الواقع يشبه المسامير أي أن العلامات الكتابية تنتهي رؤوسها بما يشبه المسامير. بدأت أولى المحاولات لفك رموز هذا الخط منذ أواخر القرن الثامن عشر ومنصف القرن التاسع عشر، وكان هذا نتيجة جهود جمهرة من العلماء والباحثين، وتشبه قصة فك مغاليق الكتابة المسمارية نظيرتها الهيروغليفية المصرية. بدأت الحكاية في التعامل مع الكتابة المسمارية حينما تسلق الانكليزي هنري كريسويك رولنسون صخرة بهستون(بيسيتون= Bisiton) في جبال كرمنشاه الإيرانية، حيث يوجد نقش للملك دارا الأخميني (داريوس الكبير ٥٢١– ٤٨٦ ق.م) في أعلى مكان في الجبل. كان رولنسون شاباً يافعاً بعمر خمس وعشرون عاماً فقط، إلا أنه كان مولعاً بعلم اللغات والدراسات الكلاسيكية ويتحلى بروح المغامرة، ودرس اللغتين اللاتينية والإغريقية وقرأ هوميروس وهيرودتس بشغف وكذلك فرجيل وبليني. وحالما أصبح ضابطاً في شركة الهند الشرقية أثارته خرائب المدن الشرقية، وعندما عين مستشاراً لشاه إيران تعرف لأول مرة على الكتابات المسمارية في مدينة برسيبولس، المدينة الملكية للسلالة الأخمينية. لقد أذهلته نقوش الصخرة العظيمة والتي لم يسبق لأي أوربي أن زارها، وفي غضون عامين زار الموقع مرات عديدة وكان كل مرة يواصل ما بدئه في المرة السابقة. كان النص الذي نقله مكتوب بثلاث لغات أولهما اللغة الفارسية القديمة وهي لغة يمكن قراءتها وكانت المفتاح الذي تم بموجبه حل

اللغتين الأخريين وهما البابلية والعيلامية اللتان لم تكونا معروفتين سابقاً. تعرف الباحث أول الأمر على أسماء الملوك وتم له فك بقية النص. أرسل ما أنجزه إلى الجمعية الملكية الآسيوية، وتواصل علماء أخرون مع ما بدءه ومنهم تلميذه جورج سمث. وفي عام ١٨٥٧ قدمت الجمعية الآسيوية نصاً مسمارياً لأحد الملوك الآشوريين لأربعة علماء ليكون حلهم بمثابة إختبار توكيد لصحة فك رموز هذا الخط. وفي هذه المرحلة ظهر في الغرب علم جديد هو الآشوريات(Assyriology) مع ملاحظة أن هذا المصطلح يغفل النصف الثاني من اللغة الأكدية وهو اللهجة البابلية.

٢- المصادر الكلاسيكية :

وتشمل الكتابات اليونانية والرومانية، وهي أعمال مؤرخي وجغرافي العصور القديمة، الذين زار بعضهم بلاد ما بين النهرين، بينما بنى البعض الآخر على معلومات متداولة أو فسروا كتباً اختفت الآن. من بين هؤلاء يخصص مكان مميز لـ(هيرودوتس)، الكاتب اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد، الذي ارتحل كثيراً ولاحظ وتحدث عن أعراف وعادات بلدان زارها، وذكر خرافات كثيرة. عموماً حفلت كتاباته رغم أهميتها بأخطاء جمة ربما لبعد الفاصل الزمني بينه وبين أحداث بعيدة، مثلاً هناك أكثر من ٢٠٠٠ عام لأحداث بلاد ما بين النهرين، ربما يكون أدق عند حديثه عن العصر البابلي الحديث أو الآشوري الحديث وهي أحداث تعود إلى الألف الأول ق.م. وما ينطبق على هيرودوتس ينطبق على مجموعة أخرى من الباحثين الأحدث مثل سترابو وديودورس وبلوترك، فهؤلاء جميعاً لا يقدمون سوى معلومات متفرقة غير مترابطة حول هذه المسألة أو تلك.

فمن بين الذين عاصروا هيرودتس في أيامه الأخيرة الكاتب اليوناني (زينفون ٤٣٠- ٣٥٥ ق.م) الذي دون طائفة مهمة عن أحوال العراق والدولة الفارسية التابع لها، وكان جندياً يونانياً من المرتزقة التحق في أسيا الصغرى بحملة الملك الأخميني كورش الأصغر، حاكم ولاية ليديا وأخي الملك أرتحششتا الثاني (٤٠٤-٣٥٠ ق.م) وقد نظم كورش حملة من عشرة آلاف جندي من المرتزقة اليونانيين عرفت بحملة العشرة آلاف إغريقي (٤٠١ ق.م) وبعد فشل الحملة قاد زينفون فلول الجيش أثناء عودته من العراق إلى آسيا الصغرى، وعرف الكتاب بحملة زينفون وهو من الوثائق المهمة عن هذه الفترة. ومن مشاهير المؤرخين اليونان (بوليبيوس ٢٠٢-١٢٠ ق.م) الذي يرجح أنه أول من استعمل مصطلح (مابين النهرين =Mesopotamia) لأطلاقه على الجزء الأوسط والشمالي من العراق. أما سترابو(٦٤ ق.م-١٩ م) فهو من أشهر الجغرافيين وقد أشتهر بمؤلفه (الجغرافيا) الذي يصف فيه أقاليم العالم القديم ومنها بلاد بابل وآشور، وتكلم عن مدينة بابل في زمنه وقال أنها كانت مهجورة تقريباً، لكنه وصف أحوالها الماضية ومنها أسوارها المشهورة وجنائنها المعلقة. ونشير إلى ديودورس الصقلي الذي وصف بلاد بابل وصف الجنائن

المعلقة وذكر أن الملكة سميراميس هي من شيدتها. المؤرخ الروماني بليني(٢٣-٧٩ م) فقد أشتهر بكتابه(التأريخ الطبيعي= Natural History) الذي يصف فيه القارات المعروفة وعادات أهلها ومواردها، وذكر أشياء مهمة عن العراق منها أن نهري دجلة والفرات كانا يصبان على إنفراد في البحر وإن المسافة ما بين مصبيهما حوالي ٢٥ ميلاً(٤٠ كم تقريباً).

وهنا من الضروري أن نشير إلى المؤرخ البابلي (بيروسس=Berossus) حيث وردت إقتباسات كثير ومهمة من كتابات هذا الكاتب في مؤلفات الكتّاب الإغريق والرومان، ويرجح أن إسمه البابلي بوعوشا أو برحوشا (كان كاهناً لمعبد الإله مردوخ في بابل في مطلع العهد السلوقي(القرن الثالث ق.م) وقد ألف كتابه باللغة اليونانية، عن جغرافية وتأريخ بلاد بابل منذ بدء الخليقة والطوفان إلى فتح الإسكندر المقدوني في حوالي ٣٣١ ق.م. إن كتابه الأصلي مفقود وما نعرفه عنه هو المقتطفات التي جاءت في كتابات الكتّاب الكلاسيكيين ومنهم بوسيبيوس من القرن الرابع الميلادي. الروماني أريان(٩٥-١٧٥م) من الكتاب الذين كتبوا عن حروب الإسكندر الكبير، وقد جاء فيها الكثير عن أحوال العراق القديم والإستكشافات التي قام بها أحد قادة الإسكندر وهو نيرخوس للخليج والبحر العربي. الجغرافي والفلكي اليوناني بطليموس الذي عاش في مدينة الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي كتب باليونانية ومن أشهر كتبه (نظام الرياضيات) الذي ترجمه العرب في زمن الدولة العباسية وسموه (المجسطي =الكتاب العظيم) وقد ضم خلاصة النظريات الفلكية والرياضية، وله كتاب آخر في الجغرافية ضمنه جداول مهمة في أسماء الأمكنة ومواضعها من خطوط الطول والعرض وخرائط العالم المعروف آنذاك ومن بينها بلاد ما بين النهرين، كما أنه نظم جداول باسماء ملوك بلاد بابل وفارس وسني حكمهم من عهد الملك البابلي نبو ناصر٧٤٧-٧٣٤ ق.م. ومن القرن التاسع الميلادي هناك الكاتب (ثيودور برخوني) الذي وضع جدولاً باسماء ملوك بابل وآشور.

٣- الكتاب المقدس :

يعد الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، واحداً من أعقد المصادر في دراسة تاريخ الشرق الأدنى القديم، فهو جمع لتقاليد من كل نوع، خرافات سامية وبشكل خاص العبرية منها، وجدت في حقب متباينة بدءاً بالألف الثاني ق.م. وجمعت في الفترة من القرن السادس إلى القرن الثاني ق.م. تعرض قسم أساسي منه بلا أدنى شك لتحريفات وتعديلات مقصودة خدمة لمصالح الكهنوت. التوراة هو كتاب العبرانيين المقدس (يعتبر البعض الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم هي التوراة اليهودي) ثم اصبح هذا الكتاب مقدساً لبعض المسيحيين، وبعد زمن طويل أعتبر من وحي أللة نفسه. فمن الطبيعي أن تقبل المعلومات الواردة فيه حول تاريخ العبرانيين وجيرانهم، في العصور الوسطى دون شكوك أو إنتقادات. بدأت عمليات النقد لمحتوى الكتاب من العالم المسيحي منذ القرن الثاني عشر، من خلال الإشارة إلى التكرار والأخطاء والتناقضات

وعليه فإن معطياته لاتساهم في دراسة تأريخ الشرق الأدنى وبشكل خاص الألف الأول ق.م. إلا بعد فحصها بحذر وتأني وتسليط أصول النقد التاريخي بعناية، وخاصة أن موقف العبرانيين كان يتسم بالعداء تجاه ملوك العراق القديم الذين غزوهم في أكثر من مرحلة تأريخية، ففي القرن التاسع ق.م غزاهم الآشوريين، ثم فعل مثلهم الملك البابلي نبوخذنصر في القرن السادس ق.م. حين سباهم مرتين الأولى في عام ٥٩٦ ق.م والثانية عام ٥٨٦ ق.م وهما ماعرف السبي البابلي الأول والثاني، كما سنفصل هذه القضايا في موضعها. وفي هذه المرحلة تعرف اليهود على أساطير وتراث بلاد وادي الرافدين، ودونوا القسم الأكبر من كتابهم التوراة، وعليه فمن الطبيعي أن يحتوي الكثير من الأفكار والمعتقدات التي تعود بإصولها لوادي الرافدين، ونتيجة لموقفهم من شعوب العراق القديم وحكامها، إتسم موقفهم بالعداء وعدم الموضوعية في أكثر الأحيان.

٤ – أخبار الرحالة والمستشرقين :

قبل أن تبدأ التحريات والتنقيبات الفعلية عن بقايا حضارة وادي الرافدين منذ منتصف القرن المنصرم، بدأ الغرب يتعرف على العراق والشرق الأدنى مدفوعاً بأطماع تجارية وأستعمارية، هذه التوجهات السياسية خدمت الرحالة والسياح ومحبي المغامرة لبدء رحلاتهم منذ القرن الثالث عشر، يدفعهم إلى ذلك تعلقهم إلى الماضي الذي تعرفوا عليه من خلال الكتاب المقدس والكتابات الكلاسكية، إن ما قام به هؤلاء كان له الأثر المهم في التعرف بالشرق القديم مما عزز من إهتمام العالم بحضارة الشرق الأدنى بشكل عام وبلاد وادي الرافدين بشكل خاص، من أبرزهم الرحالة الإسباني الحاخام بنيامين بن يونس التطيلي(١١٦٠ م) الذي يرجح أنه أول سائح وصل العراق في زمن الخليفة العباسي المقتفي بالله (١١٦٠–١١١٠م) وقد وصف في مذكراته أطلال بعض المدن مثل نينوى وبابل التي قال إن خرائبها تمتد حوالي ٥ كم، ووصف بقايا قصر سماه قصر نبوخذنصر، كما وصف برج بابل كما يقول، ولكن الأوصاف التي ذكرها تنطبق على البرج المدرج في بورسبا(برس النمرود حوالي ٢٠ كم جنوبي الحلة)، وترجمت رحلته إلى الفرنسية والأنكليزية وقد أثارت إهتماماً كبيراً في أوربا كما ترجمت للعربية من قبل السيد عزرا حداد. وأعقبه مجموعة من الرحالة منهم الطبيب الألماني راوولف من أهل القرن السادس عشر الميلادي وأستغرقت رحلته ثلاث سنوات من (١٥٧٣–١٥٧٦) زار خلالها برج عقرقوف وظنه برج بابل الوارد في التوراة. ثم الأيطالي (بترورديلافاله) الذي تجول في العراق والشرق في الفترة من ١٦١٦–١٦٢٥ وزار بابل وبقايا أور، وهو أول من زار من الغربيين حصن الأخيضر الشهير، كما أنه أول أوربي نقل نماذج من الكتابات المسمارية إلى أوربا أخذها من برسيبوليس العاصمة الفارسية الشهيرة، كذلك أخذ آجراً مختوماً بهذا الخط من بابل وأور. ومن القرن الثامن عشر نشير إلى الرياضي الدانيماركي كريستن نيبور الذي قاد أول بعثة إستكشاف في الشرق

الأدنى في عام ١٧٦١–١٧٦٧ وقد زارت هذه البعثة مدن نينوى وبابل ووصفت بقاياها ورسمت لها مخططات مهمة، كما أنهم استنسخوا نماذج عديدة من الكتابات المسمارية، ونشر نيبور نتائج تحرياته عام ١٧٧٨. ثم إزداد الإهتمام بماضي بلاد وادي الرافدين خلال بقية القرن الثامن عشر وجاء الكثير من الغربيين بصفات متعددة لزيارة العراق وكان لإسهاماتهم الفضل في الكشف عن ماضي هذه البقعة المهمة، وأستمر الحال حتى بدأت التنقيبات التي إستهلها بعض الهواة في منتصف القرن التاسع عشر، ولم يكن عملهم في أغلبه إلا عمليات نبش ومحاولة لإستخراج المنحوتات الكبيرة والمميزة، فليس هناك إهتمام بالطبقات الأثرية أو تسجيل مخططات المباني القديمة، ويمكن تحديد بداية هذه المرحلة في حوالي ١٨٤٢و١٨٤٣ فالقنصل الفرنسي (إميل بوتا) حصل على إمتياز التنقيب في خرسباد، واستخرج الكثير من الآثار التي شحنها فرنسا وهي الآن في متحف اللوفر في باريس. ونقب الأنكليزي هنري ليارد في نينوى عام ١٨٤٥ وحاز على الكثير من الكنوز والآثار النفيسة، كما أنه كشف عن مكتبة الملك الآشور آشور بانيبال الشهيرة التي ضمت عشرات الآلاف من الرُقم الطينية، ثم خلفه هنري رولنسون الذي أسهم بفك رموز الخط المسماري كما أشرنا. وفي جنوب العراق عمل القنصل الفرنسي إميل دي سارزك في لگش في عام ١٨٧٧–١٨٧٨ وباع ما حصل عليه لمتحف اللوفر. وحفرت جامعة بنسلفينيا في نفر (نيبور)عام ١٨٨٩،١٨٧٧–١٩٠٠. ومع مطلع القرن العشرين بدأت التنقيبات العلمية التي قامت بها مؤسسات علمية رصينة من جامعات ومعاهد متخصصة وأفراد محترفين. ويمكن تحديد بدء هذه المرحلة مع قيام البعثة الألمانية بأعمالها في بابل للفترة من ١٨٩٩–١٩١٧ وفي آشور ١٩٠٤–١٩١٤، واستمر علم الآثار بالتطور في الكشف عن مخلفات الماضي ودراستها وتحليلها واستخراج الدلالات التأريخية منها، وتنوعت الأختصاصات الآثارية وشملت فضلاً عن المدن القديمة، بقايا عصور ماقبل التأريخ المهمة، وتتبع أصول الحضارة وبداياتها، وضبط الأساليب العلمية التي تعين الباحثين في تحديد أزمان الأثار وأدوارها بالنسبة لعهد ثابت، وقد رافقت بدايات التنقيبات محاولات الكشف عن رموز الخط المسماري كما أشرنا. ونشير إلى أنه في القرن العشرين قد تنامى الحس الوطني لدول الشرق الأدنى وبدأت بالإهتمام بآثارها وتراثها وبدأت تنشيء المتاحف وتشكل بعثات آثارية محلية وأصدرت قوانين للآثار كما حصل في العراق عام ١٩٣٦ الذي نظم العلاقة بين العراق والبعثات الأجنبية وتحديد عائدية الآثار وغيرها وأنشئت الحكومة العراقية المتحف العراقي عام ١٩٦٦ وهو من أشهر المتاحف في العالم لما ضمه في قاعاته وأروقته من آثار مهمة تعود لحقب متعددة.

المحاضرة الخامسة

العصور الحجرية القديمة

الآثار(Antiquity): تعني مخلفات الماضي مما صنعته يد الإنسان أو أنتجه فكره على مر العصور كالمباني والفنون والمعتقدات والأفكار والأساطير والأشعار.أما علم الآثار(Archaeology) فهو إستعادة وفهم التأريخ الإنساني من خلال دراسة البقايا الطبيعية والحضارة المادية مثل العظام والفخار والحُلي والأسلحة والعمارة. إذن هو العلم الذي يدرس ماضي الإنسان ويحلل مخلفاته، وهو دراسة للتوزيع السابق لآثار الثقافة في الزمان والمكان، ودراسة العوامل التي تحكم توزيعها. وإن البقايا المادية التي يخلفها المستوطنون هي النقطة المركزية في إهتمام علماء الآثار، وتشكل الأشياء المادية المدركة بالحواس، والمصنوعة من الحجارة والأخشاب والعظام والمعادن...الخ، جسم البنية الآثارية، بإعتبارها وسيلة التوصل إلى فهم ثقافات محددة وإدراكها وفقاً للأطر التي تسمح بها البيئة، وهي تسهم في النهاية في فهم السلوك الإنساني عموماً .

وتشكل البقايا الحجرية أبرز مخلفات الإنسان في العصور القديمة، ومنها جاءت التسمية، وهي تشغل حيزاً زمنياً طويلاً يشكل حوالي ٩٩٪ من حياة الإنسان على الأرض، أي منذ أن أصبح الإنسان صانعاً للآلة على الأقل.أما المراحل الممتدة بين نهاية هذه العصور وعصرنا الحاضر، فتكون هي الواحد بالمائة الباقية. ونظراً لطول عصور(ما قبل التاريخ=Prehistory) فقد قسمها الباحثون والمختصون بدراستها إلى ثلاثة عصور، كلٌّ منها يقسم بدوره إلى عصور ثانوية، وتم هذا التقسيم وفقاً لطرق صنع الآلات والمواد الأثرية، وخصوصاً الآلات الحجرية والأواني الفخارية، وحسب الترتيب التالي :

أولاً : العصر الحجري القديم . .Paleolithic

ويشغل الفترة من حوالي ٢ مليون سنة من الآن، وينقسم إلى ثلاثة عصور ثانوية هي :

١ – العصر الحجري القديم الأدنى .. Lower Paleolithic من حوالي ٢ مليون سنة من الآن.

٢– العصر الحجري القديم الأوسط .Middle Paleolithic . من حوالي ١٥٠ ألف سنة من الآن.

٣ –العصر الحجري القديم الأعلى .Upper Paleolithic . من حوالي ٤٥ الف سنة من الآن.

ثانياً : العصر الحجري الوسيط . Mesolithic . وهذا المصطلح ليس شائعاً في الشرق الأدنى، ويشير بعض الآثاريين إلى المواقع النطوفية بأنها من هذه الفترة الإنتقالية بين العصر الحجري

القديم والعصر الحجري الحديث، ويعرف الآن بإسم (العصرالتالي أو اللاحق للحجري القديم =Epipalaeolithic). ويؤرخ من حوالي ٢٠ الف سنة من الآن.

وهو مرحلة انتقالية من العصر الحجري القديم إلى العصر الحجري الحديث، وعرف في بلاد وادي الرافدين باسم العصر (الزرزي) ووجدت آثاره في منطقة السليمانية، وعرف هذا العصر باسم العصر (الميكروليثي) لانتشار آلاته الحجرية الدقيقة.

ثالثاً : العصر الحجري الحديث : Neolithic . ويؤرخ من حوالي٩٥٠٠ ق.م.

وسمي أيضاً بعصر(إنتاج القوت)، فهذا الانقلاب بدل حياة الإنسان تبدلاً كاملاً، فمن المعروف إن أقدم المجتمعات الزراعية، شغلت الأقسام الشمالية من بلاد وادي الرافدين، ضمن المناطق الجبلية في العراق وإيران وشرق البحر المتوسط وتركيا، وفي مناطق نمو الحشائش المجاورة، المعتمدة على المطر حيث كانت توجد تلك النباتات كالشعير والقمح والحيوانات التي نجح الإنسان في تدجينها مبكراً، ورغم أنه من البديهي أن تطور الزراعة والرعي سبق نمو المدن، إلا أن من الأمور المهمة أن المدن الأولى ليس في وادي دجلة والفرات فحسب، بل كذلك في وادي النيل والسند نشأت خارج تلك المناطق الأساسية التي مورست فيها الزراعة أول مرة.وقد تميز العصر الحجري الحديث عن العصور السابقة بابتكار صناعة جديدة هي صناعة الخزف(الفخار) التي أصبحت دراستها عوناً للباحثين والمنقبين الآثاريين لمعرفة زمن الحضارات وتمييز بعضها عن البعض الآخر.ولكن الاكتشافات الحديثة اظهرت لنا ان صنع الفخار لم يبدأ في الاطوار الاولى من هذا العصر فاطلقوا عليها مصطلح ما قبل الفخار وصار المعول في تمييز المستوطنات التي يرجع تريخها الى العصر الحجري الحديث على نشوء القرى الفلاحية الزراعية وبقاياها الدالة على الزراعة وتدجين الحيوان مثل عظام الحيوانات المدجنة وبقايا الحبوب التي زرعها الانسان وفي مقدمتها الشعير والقمح وظهور ادوات وآلات جديدة نتجت عن ذلك الانقلاب الاقتصادي مثل المناجل المكونة من قطع حادة من حجر الصوان وهي مثبتة بالقير وقد استعملها الانسان للحصدومثل الرحى وتشيد البيوت من اللبن او الطين وتجمعها في قرى سكنية صغيرة وبداية الاستقرار في القرى الزراعية وقد عمل ضمان العيش بالانتاج تكاثر السكان كما تدل على ذلك كثرة هذه القرى بالمقارنة مع قلة المستوطنات وضآلة عدد سكان العالم في العصور الحجرية القديمة .

كما ذكرنا سابقاً بأن الرقعة الجغرافية التي انحصر بها ذلك الانقلاب هي رقعة جغرافية تشمل السفوح الجبلية في شمال العراق وسفوح جبال زاجروس في ايران وفي تركيا وهضاب آسيا الوسطى وبلاد الشام وهناك شروط وادلة على كون منطقةٍ ما ظهر فيها انقلاب العصر الحجري الحديث ،منها وجود نباتات طبيعية للحبوب التي دجنها الانسان بالزراعة وفي مقدمتها الشعير والقمح والشوفان ووجود الحيوانات الوحشية التي دجنها مثل الماعز والغنم والبقر ، ولكن توفر

وجودهذه الاشياء ليس دليلاً على تعلم الزراعة وتدجين الحيوان بل يبغي ان نعثر على دليلا على ذلك الا ان تلك المناطق التي يتوفر بها الدليل تكون متواجدة في شمال العراق .

وتؤرخ بدايات هذا العصر في العراق وبقاع الشرق الادنى الاخرى في حدود ١٠٠٠٠-٨٠٠٠ق.م وانتقل بعد بضعة الاف من السنين الى جهات البلقان واليونان واوربا ،وهناك منطقتان جغرافيتان في الكرة الارضية ثبت ان انقلاب العصر الحجري الحديث تم فيهما بصور مستقلة عن منطقة الشرق الادنى واقدمها الشرق الاقصى في الصين حيث قدرت بداية زراعة الرز وتدجين الحنزير في حدود ٣٠٠٠ق.م ويلي هذه المنطقة في القدم امريكا الوسطى التي تعلم فيها الانسان زراعة الذرة وتدجين حيوان اللاما في حدود ١٠٠٠ق.م .

اما اهم المواقع الاثرية التي وجدت فيها بقايا العصر فانها تنحصر اولا في الاجزاء الشمالية من العراق واهمها ١- قرية جرمو ٢-الطبقات الاولى من الموقع الاثري المسمى تل "حسونة " بالقرب من قرية الشورة بجوار الموصل ٣- الطبقات السفلى من الموقع الاثري المسمى "شمشارة "على ضفة الزاب الاسفل في سهل رانية ٤-الطبقة العليا من كهف شانيدر ٥-الطبقات السفلى من عدة مواقع اثرية في شمالي العراق تميزت بآثار الادوار التي اعقبت العصر الحجري الحديث وهو العصر المسمى " العصر الحجري المعدني " .

خصائص العصر الحجري الحديث:

بالنظر الى اهمية التطور الذي حدث في حياة الانسان في هذا العصر في الشرق الادنى في العراق لذا نلخص اهم المميزات .

١- تأكيد اهمية التطورات التي حدثت في حياة الانسان في تحقيق اهم انقلاب او ثورة اقتصادية بالزراعة وتدجين الحيوان التي ضمنت للانسان عيشه وعملت على تكاثر السكان وبداية حياة الاستقرار.

٢- ومع ظهور انتاج القوت بالزراعة بيد انها كانت زراعة محودة وبمقياس صغير وكانت زراعة مطرية نشأت كما رأينا في الاماكن التي تتمتع بسقوط امطار كافية مثل شمالي العراق ولم تنشأ زراعة الري الوسعة الا من بعد عدة قرون حين استوطن الانسان سهول الري الرسوبية في وسط وجنوب العراق، اما زراعة العصر الحجري الحديث فانها كانت تتصف بالاكتفاء الذاتي ، اذ كانت العائلة الفلاحية تنتج ما تحتاج الية من القوت ولم يتعلم انسان العصر الحجري الحديث الانتاج الفائض الذي ظهر في العصور التالية .

٣- لم يظهر في العصر الحجري الحديث ما يسمى بالتخصص وتقسيم العمل فكان الفلاح نفسة هو الذي ينتج ادواته البسيطة ، واذا كان هناك نوع من التخصص البدائي فانه اقتصر على تقسيم العمل مابين الرجل والمرأة التي يرجح انها هي التي اهتدت الى الزراعة ،وتخصص الرجل بتربية الماشية وصنع الادوات البسيطة،ويمكن القول ان زراعة انسان العصر الحجري المحدودة

كانت زراعة متنقلة ، لان الفلاح كان يضطر الى التنقل الى قطعة اخرى من الارض بعد ان يستنفذ خصب الحقل الذي زرعه ،والمرجح ان البساتين لم تظهر بعد في هذا العصر .

٤- نتج عن انقلاب هذا العصر الاقتصادي تطورات اجتماعية مهمة منها بداية الاستقرار ونشوء القرى والتجمع السكاني والملكية الفردية اي ملكية الفلاح للحقل والادوات الزراعية البسيطة والحيوانات المدجنة ، كما يرجح ان بذور الحروب والمنازعات قد ظهرت في هذا العصر من جراء النزاع على تلك الحقول والحيوانات .

٥- ويرجح ان الانسان في العصر الحجري الحديث اهتدى الى فكرة قياس الزمن ولاسيما التقويم الشمسي بقياس السنة الشمسية بالدورات الزراعية من بذر الى بذر آخر او من حصاد الى حصاد آخر ،ولكنة ظل يستعمل الاشهر القمرية.

٦- ومع اننا نجهل نوع الديانة التي ظهرت عند انسان العصر الحجري الحديث بيد انه يكاد يكون من المؤكد ان تكون بذورها قد ظهرت في هذا العصر ،وان اول معبود او قوة عليا تصورها الانسان كانت على هيئة الهة تمثل الارض وخصبها والعمليات الزراعية وقد خلف لنا انسان العصر الحجري الحديث نوعا من الدمى او الصور الطينية على هيئة نسوة بدينات وقد فسرها الباحثون بانها تمثل الالهة التي عبدها الانسان واطلق عليها كما ذكرنا اسم الالهة – الام (Mother Goddess).

العصر الشبية بالكتابي او الشبية بالتاريخي :

ارتأى جماعة من الباحثين حديثاً ان يطلقوا مصطلح العصر الشبيه بالكتابي (proto Literate) او الشبية بالتاريخي (Proto Historic) على طور الوركاء الاخير الذي يمثله في مدينة الوركاء الطبقات ٥و٤أ،ب،جـ وعلى دور جمدة نصر الذي يمثله الفخار الخاص الذي عثر عليه لاول مرة في التل المسمى " جمدة نصر" القريب من كيش وعثر عليه في الوركاء (الطبقتان ٣و٢)وغيرها من المواقع ، وادخل ضمن هذا العصر في رأى بعض الباحثين عصر السلالات الاول ،وقد قدر زمن العصر الشبية بالكتابي في حدود ٣٥٠٠-٢٨٠٠ق.م .

ولعل ابرز خصائص هذا العصر مايلي :

١- استمر تقدم المعماري الممثل ببناء المعابد بشكلها العام الذي ظهرت فيه في الادوار السابقة منذعصر العبيد ولكنها ازدادت في العصر الشبيه بالكتابي سعه واناقة وزخرفة كما ظهرت اوائل المعابد العالية اي الزقورات التي تميزتبها حضارة وادي الرافدين حيث عثر على عدة نماذج منها في الوركاء وهي مقامة فوق مصاطب اصطناعية مثل معبد آنو وتجدر الاشارة الى نموذج مهم من هذه المعابد اكتشفت بقاياه في تل العقير من عصر الوركاء الرابع وهو مقام فوق مصطبتين وقد زينت جدرانه برسوم رائعة ملونة لبعض الحيوانات كالاسود والفهود .

٢- ومن الاشياء الحضارية المهمة الجديدة التي اخترعت في هذا العصر مايسمى بالاختام الاسطوانية (cylinder Seals) التي تميزت بها حضارة وادي الرافدين ،وكانت الاختام في الادوار السابقة من النوع المنبسط (Stamp Seal)،وصارت الاختام الاسطوانية الجديدة ملازمة لحضارة وادي الرافدين في جميع عهودها،والختم الاسطواني عبارة عن خرزة اسطوانية نحتت من الاحجار المختلفة وبعضها من الاحجار الثمينة او الاحجار الشبه الكريمة وتثقب ثقباً نافذابطولها وتنقش بأطرزة مختلفة من الاشكال الادمية والهندسية ومشاهد الالهة وغيرها من الاشكال وبعضها ينقش بكتابة مختصرة قد تبين اسم صاحب الختم وهويته كلها تنقش بهيئة معكوسة بحيث اذا دحرج الختم على لوح الطين وهو طري يحدث فيه طبعة موجبة ،وكانت الوظيفة الاساسية للختام الاسطوانية انها كانت لتوثيق العقود اي بمثابة التوقيع .

٣- تشير الاواني الفخارية من هذا العصر الى أن العراقيين القدماء اخترعوا دولاب الخزاف الحقيقي ،وكان قبل ذلك على هيئة قرص مستدير يدور باليد لصنع الاواني ، كما ان هناك دلائل اثرية على اختراع عجلة العربات ويعد دولاب العجلة من اعظم الاختراعات في تاريخ وادي الرافدين ،كما تقدم فن التعدين وصنع الادوات المعدنية المختلفة تقدما كبيراً بحيث انهم صنعوا اسلاكاً من النحاس ويظهر جلياً من خلال في ربط الكسر الموجود في الاناء النذري من الوركاء

٤- حصل تطور ملحوظ في المدن الصغيرة والقرى من العصور السابقة بحيث اصبح الكثي منها مدناً كبيرة بكون كل منها نواة لدويلة هي دولة المدينة (City Stats).

٥- اعظم اختراع حققه العراقيون القدامى في هذا العصر كان في ايجادهم نظاما خاصا للتدوين اي الكتابة فكانت اقدم كتابة في جميع الحضارات فهي تسبق الخط الهيروغليفي المصري مثلا بما لايقل عن قرنين من الزمان ، وقد استعمل العراقيون القدماء الطين مادة للكتابة ، فقد عثر لاول مرة في تاريخ حضارة وادي الرافدين في الطبقة الرابعة من الوركاء في معبد (آي-انا)على عدة الواح من الطين وهي مكتوبة بعلامات صورية (Pictographic) اي ان العلامة تمثل الشييء المراد تدوينة ، وان ظهور الكتابة في حارة المعبد في الوركاء له دلالته التايخية ،اذ كان المعبد مركزاً لحياة المدينة الاقتصادية والاجتماعية وان تلك الالواح البسيطة عبارة عن سجلات باملاك المعبد وارداته.

العصر الحجري المعدني :

سوف نحدد الآن ما أشرنا إليه بالعصر الحجري المعدني Chalcolithic) أو ما يسمى بالعصر الحجري- النحاسيCopper -Stone Age)) ويؤرخ من حوالي ٦٠٠٠ ق.م إلى حوالي ٣٠٠٠ ق.م. وهو العصر الذي يتبع العصر الحجري الحديث، والذي إشتهر وتميز بالبراعة في تعدين وعمل النحاس. يقسم هذا العصرفي بلاد وادي الرافدين إلى عدة عصور ثانوية، والتي ليس جميعها كانت قد تمت مشاهدتها أو البرهنة عليها في كل البلاد لذلك فإن هذا

المصطلح كان نادراً ما يستعمل في السياق والمحتوى الآثاري في بلاد وادي الرافدين. سنتابع بشكل عام الأدوار التالية فيه :

١- حضارة أو دور حسونة ٦,٥٠٠ -٥,٠٠٠ ق.م .

٢- حضارة أو دور سامراء ، ويعدها الكثير من الباحثين جزءاً من العصر السابق .

٣- دور أو حضارة حلف ، الألف السادس ٦٠٠٠- ٥٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ ق. م.

٤- دور العبيد الألف ٥٥٠٠ ق .م ٤٠٠٠ ق.م.

٥- عصر الوركاء ٤٠٠٠ -٣٠٠٠ ق .م .

٦- عصر جمدة نصر ٣١٠٠-٢٩٠٠ ق.م .

وبالعودة إلى الأدوار الحضارية في العصر الحجري المعدني علينا أن نفصل قليلاً عن هذه الأدوار، سماتها وخصائصها ومكتشفاتها التي ربما تختلف من طبقةٍ إلى أخرى. وسوف نبدأ بدور أو حضارة (حسونة) والتي سميت بهذا الاسم نسبة إلى قرية حسونة التي تقع على مسافة ٣٥ كم إلى الجنوب من الموصل. وهذا الموقع يقع شمال القرية حوالي ٢ كم، وهو تل صغير بيضوي الشكل. وتبلغ مساحة قمته المنبسطة حوالي ٢٥٠ م٢. وقد نقبت فيه المديرية العامة للآثار عام ١٩٤٢م، وكشفت عن قرية زراعية يرقى زمنها إلى أواخر الألف السادس ق.م. وهو الزمن الذي عرف فيه الإنسان المعادن. وضم هذا الموقع ست عشرة طبقة أثرية أي ستة عشرة دوراً بنائياً من بيوت السكنى، مشيدة على أنقاض بعضها البعض. وتم العثور على آنية فخارية متنوعة، لاسيما المصبوغة منها باللون البرتقالي، كما عثر على أدوات من العظم والحجر، تكون صورة لمجتمع المزارعين الأوائل، وهم أقدم سكان هذا المستوطن. وقد أمكن تصنيف الآثار التي وجدت في هذا الموقع ولا سيما الفخارية إلى خمسة أدوار حضارية تبدأ من أسفل التل فوق ما يسمى بالأرض البكر وعرف بفخارالعصر الحجري الحديث. ويشمل الثاني فخار دور أو حضارة حسونة، وأقدمه فخار حسونة الخالي من الألوان ثم الفخار المزين بالحزوز والألوان العصر الحجري الحديث. ويشمل الثاني فخار دور أو حضار الأشكال الهندسية. ويليه فخار دور أو حضارة سامراء ثم دور حلف وأخيراً العبيد .

ثم ننتقل إلى دور أو حضارة (سامراء)، وهو الدور الذي يلحقه بعض الباحثين بالدور السابق أي دو حسونة. وهو الدور الثاني من العصر الحجري المعدني، سمي بهذا الاسم نسبة إلى مدينة سامراء الشهيرة، إذ عثر على أوانيه الفخارية في أنقاض هذه المدينة لأول مرة. ويبدو أن هذا الدور الحضاري قد انحصر بالقسم الشمالي من بلاد وادي الرافدين، إذ عثر على فخاره في حسونة و تل شمشارة وتلال أخرى في المناطق الشمالية ولم يعثر على بقاياه في الأقسام الجنوبية، ولكن وجد ما يضاهيه في بلاد عيلام، الجزء الجنوبي من إيران وعاصمتها سوسة الشهيرة. بشكل عام تسهل معرفة الأواني الفخارية من دور سامراء، فهي ذات لون

واحد(مونوكروم = Monochrome) ومزخرفة بزخارف هندسية، ونجد في بعض الأواني أشكالاً حيوانية مبسطة الرسم كالطيور والأسماك، والعقارب وأشكالاً أدمية في حالات قليلة. ويغلب على هذه الزخارف أنها ملونة باللون الأسود الفاتح أو الأسمر على أرضية صفراء باهتة. وتجنباً لوقوع الطالب بأشكالٍ حول التسمية، نشير إلى وجود فخار في العصر الإسلامي عرف أيضاً بفخار سامراء ويؤرخ من العصر العباسي في القرن الثالث الهجري أي التاسع الميلادي. أما الدور الذي يليه وهو دور حضارة(حلف) فهو الدور الثالث من أدوار العصر الحجري المعدني وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلى موقع أثري إسمه حلف يقع بالقرب من قرية رأس العين على الحدود التركية –السورية. وقد وجد المنقب الألماني الشهير(ليو.اوبنهايم) قبيل الحرب العالمية الأولى بقايا مدينة مهمة إسمها (كوزانا) والتي كانت عاصمة آرامية مزدهرة في القرن العاشر ق.م. وقد وجد المنقبون تحت أنقاض هذه المدينة أوانٍ فخارية تعد روعة في الجمال وزخرفة وتعدد الألوان(بوليكروم= Polychrome) وهو يشبه الفخار اليوناني القديم إلا أنه أقدم منه بآلاف السنين. وعثر عليه أيضاً في عدة مواقع أثرية أخرى لاسيما في مدينة الموصل مثل تل الأربجية و تبه كورا وتل حسونة، وقد أقتصر على المواقع الشمالية ولم يوجد في الأجزاء الجنوبية من بلاد وادي الرافدين. عموماً إن الفخار في هذه الفترة والتي سبقتها (سامراء) امتاز ليس فقط بتقنية صناعته المتطورة ولكن أيضاً بألوانه الجميلة. وغالباً ما تكون هذه الزخارف الملونة هندسية الشكل، والاختلاف بين الدورين أو الحضارتين كان فقط في اختلاف الزخارف وفي الأشكال والرسوم الملونة عليه. وقد تعني هذه الاختلافات اختلافاً عرقياً، وبعضها يعني بالتأكيد اختلافاً في الأفكار الدينية أي الأشكال الرمزية التي استخدمها الفنانون، كرأس الثور (البكرانيون = Bucranion) من الجهة الأمامية، أو الصليب المالطي من تل حلف، وفي سامراء الصليب المعقوف إما منفرداً أو جزء من المشهد. ونشير إلى أنه ظهر في عصر حلف إلى جانب البيوت التقليدية ذات الغرف المستطيلة، بنايات دائرية لها أحياناً غرفة في المدخل مستطيلة أُضيفت فيما بعد عرف بـ(ثولوس = Tholos)، ويمكن أن نتبع هذه البيوت الدائرية في تبه كورا وتل حسونة. وقد وجدت هذه البيوت بكثرة في بلاد وادي الرافدين في هذه الفترة إلى درجة يجب أن تؤخذ على أنها دليل على أهمية ما، وبخاصة وإن حقيقة شكل البيوت عند أي مجموعة من الناس، هي رباط تقليدي لفترة طويلة جداً. وربما هناك نوع من العلاقة بينها وبين البنايات المدورة التي وجدت بكثرة في فترة ما قبل الفخار في العصر الحجري الحديث (ينظر موقع قرمز درة)، وباتجاه آخر هناك بنايات مشابهة صورت على منحوتات العصر الآشوري الحديث، ربما بعد خمسة آلاف سنة، وتكمل الصورة بيوت شمال سوريا الحديثة التي تأخذ شكل خلية النحل. وظهرت في هذا العصر الأختام المنبسطة الدائرية(Stamp Seal)، كما اتسع حجم القرى الفلاحية وزاد عدد سكانها، بحيث أصبحت مدن صغيرة كما حصل في تل(الأربجية) حوالي ٨

كم شمال شرق نينوى العاصمة الآشورية القديمة من هذا الدور، إذ عثر فيه على بيوت منتظمة مشيدة من اللبن، وبلطت شوارع هذه القرية بالحجارة الطبيعية. وفيما يتعلق بالأفكار الدينية من عصر حلف، فهناك الكثير من مما يمكننا معرفته، والأكثر مما يمكن تصوره من أشكال الدمى الطينية الملونة التي تمثل الأنثى،والتي مثلت في وضعٍ جاثم وقد وضع الذراعان مع بعضهما تحت الصدر وركز على الصدر في التمثيل في حين مثل المنكبان بضخامة، أما الرأس فإن تمثيله ضعيف. وهناك دمى حيوانية، والدمى الخاصة بالماشية بشكل خاص كانت شائعة، ويجب أن تؤخذ على أنها ذات علاقة بعلامة(البكرانيون= Bucronion) الموجودة على الفخار، أي كنوع من الرموز الدينية أو السحرية.

عصر العبيد .

بعد أن استعرضنا مراحل تشكيل السهل الرسوبي في جنوب بلاد وادي الرافدين، نصل الآن إلى أول الأدوار التي عرفت في هذه المنطقة والذي عرف باسم دور أو حضارة (العبيد) وهو موقع صغير يقع على بعد نحو ٦ كم شمال غرب مدينة أور الشهيرة، وقد سمي هذا الدور المهم نسبة إلى هذا الموقع. عصر العبيد يشغل الفترة الزمنية من نحو ٥٥٠٠- ٣٨٠٠ ق.م. ويقسم البعض هذا الدور إلى أربعة فترات من ١- ٤ ، ويضيف لها آخرون فترة أولية سميت باسم العبيد (صفر) وهذه الفترة معروفة في موقع(تل العويلي) على الجانب المقابل لموقع أور على نهر الفرات . ويشكل هذا العصر أو الدور الحضاري أقدم مراحل الاستيطان المستقر في السهل الرسوبي الرافديني. وقد حلت حضارة هذا العصر محل حضارة عصر(حلف) الشمالية. وعرف هذا الدور هناك باسم (العبيد الشمالي) وكان انتشاره هناك سريعاً، إذ اختفت الكثير من طرز دور حلف السابق، وكذلك اختفت وبدون سابق إنذار بعض الرموز الدينية المميزة في الفن، ومع ذلك فأن سكان حلف لم يتلاشوا تماماً، عثر على بقايا مواقع تحمل سمات عمارة(ثولوس=Tholos) المميزة في عصر حلف في مواقع عبيدية كما في (تبه كورا) في الموصل. فضلاً عن وجود زخارف آدمية وحيوانية في زخارف هذا الموقع من فترة أواخر العبيد. رغم أن ظاهرة الأشكال الآدمية والحيوانية كانت غائبة عن الفن العبيدي، حتى أن البعض فكر بربط هذه القضية بالناحية التحريمية كما هو الحال في الفن الإسلامي وكذلك اليهود الأوائل. إلا أن آخرين يرون أن تفسير هذه الظاهرة ربما يعود إلى أن المرحلة التي سبقت تفكير الإنسان بأن الآلهة كانت ذات أشكال طبيعة آدمية، كانت تعتبر القوى المقدسة بأنها ذات أشكال طبيعة وغير آدمية، وعليه فأن سكان حلف والعبيد كانوا مختلفين في هذا الشأن. وامتدت هذه الحضارة إلى إطار جغرافي واسع، وكانت صلات لمسافات طويلة، فقد وصلت إيران وحتى الخليج .

وهنا لابد من الإشارة إلى أن جنوب بلاد وادي الرافدين، كان منطقة غنية بالزراعة والتي كانت أساس الاقتصاد من هذه المنطقة، إلا أنها افتقرت إلى سلع أساسية كالحجر والخشب وخامات

المعادن، وفي الحقيقة فإنه بإستثناء الطين الموجود في كل مكان في السهل الرسوبي وصنع منه الفخار والأواني الأخرى، خلت البلاد فعلياً من الموارد الطبيعية، ولهذا السبب كانت التجارة ذات أهمية حيوية، ونشأت في فترة مبكرة شبكة واسعة من الطرق تربط هذه المنطقة ببقية مناطق الشرق الأدنى. وكانت الأنهار ولاسيما الفرات وروافده، طيلة تاريخ بلاد وادي الرافدين، طرق التجارة الرئيسة إلى أنحاء البلاد كافة، واستعملت أيضاً في انتقال الناس والمؤن والوحدات العسكرية في أوقاتٍ لاحقة. عرف الدور الأول من هذا العصر بإسم (أريدو) نسبة إلى موقع اريدو المدينة السومرية الشهيرة التي تقع بالقرب من الجانب الغربي من نهر الفرات في مدينة الناصرية، وتعرف بقاياها بإسم (أبو شهرين) حوالي ٢٥ كم جنوب غرب مدينة أور. ولابد أن مستوطني هذا الموقع كانوا من المزارعين، رغم أن صيد الأسماك كان عنصراً أساسياً في اقتصادهم. وقد أجبرت الظروف هؤلاء الناس إلى تصريف المياه وفتح القنوات والعمل في وسائل الري وذلك لأن المنطقة تعتمد في زراعتها على الري، إذ استعملت المبتكرات التقنية من محاريث وقنوات الري الصناعية التي أُخترعت في فترات سابقة، على نطاق واسع في هذه المنطقة. وقد ساعدت هذه التقنيات على زيادة الكفاءة الزراعية وحتى غلة الأرض، الأمر الذي أدى إلى تحرير بعض أفراد المجتمع لكي يتخصصوا جزئياً إن لم يكن كلياً. وأدت في النهاية إلى استقطاب واضح في المجتمع لفئة تسيطر على الموارد كالأرض والمشاريع الإنتاجية أو التجارية. وكان الحجم الناجح للمستوطنات يرتبط ارتباطاً مباشراً بتلك التطورات التقنية. وأدت زيادة الإنتاج أيضاً إلى فائض تطلب إعادة توزيعه في النهاية نشوء مؤسسات اجتماعية وسياسية خاصة .

وشيدت مستوطنو اريدو (العبيد الأول) معبداً صغيراً من الطين الطري، ويبدو أن هذه البقعة اكتسبت قدسية خاصة، حيث كشف عن سلسلة من حوالي أثنى عشر معبداً على الأقل أعيد تشيدها خلال عصور ما قبل التاريخ، وكذلك في العصور التاريخية .

وحاول بعض الباحثين وضع تاريخ لفترة العبيد بالاعتماد على وجود ستة أو سبعة معابر متعاقبة من هذه الفترة.غير أن تحديد ذلك بفترة زمنية قد يقود إلى افتراضات عرضة للمناقشة. فأبنية الطين سريعة الهدم و الانهيار لذا فأن افتراض الباحث (جوردن تشايلد) بأن معدل عمر المعبد الواحد يقدر بحوالي مئة سنة يبدو مغالياً فيه، إذ أن هناك إشارات لمعابد في الألف الأول ق.م.إنهارت خلال ٤٠ سنة، لذا فأن فترة الستمائة سنة التي توصل إليها (تشايلد) يمكن قسمتها إلى إثنين.

الطور الثاني من العبيد عرف باسم (حاجي محمد) نسبة إلى موقع صغير يقع قرب مدينة الوركاء حيث أمكن تمييز فخار لأول مرة. وقد أمكن تحديد عدد من المواقع في الوسط والجنوب من هذه الفترة والفترتين اللاحقتين ونقصد الطور الثالث والرابع منهما مواقع مشروع حمرين مثل تل عبادة وتل مظهر وخيط قاسم، وفي الجنوب في أور وأريدو والعويلي ورأس

العمية وامتداده لمناطق الجوار في سهل سوسيانة في مواقع سوسة وجعفر آباد وامتداده الشمالي في مناطق الزراعة الجافة في موقع (تبة كورا).

عموماً هناك العديد من الأدلة التي تشير إلى التطور نحو مجتمعات أكثر تعقيداً من سابقتها وخاصة في العبيد ٢- ٣ في الجنوب وفي وسط بلاد وادي الرافدين، حيث وجد نوعان من أنماط الاستيطان والمستوطنات ١- القليل كان بقياس حوالي ١٠ هكتارات (الهكتار الواحد يساوي ١٠،٠٠٠م٢) ٢- والكثير من المستوطنات كانت حوالي هكتار واحد. وكان هناك مركز يحاط بقرى صغيرة. وفي هذه المرحلة كان المعبد مركز للعبادة كما انه مركزاً لتجميع وتوزيع البضائع الزراعية. ويلاحظ تطور في النظام الكهنوتي، والنظام الإداري حيث أصبحت التجمعات الصغيرة المستقلة تتحد لتشكل اتحادات تعاونية وتنظيمية أكبر. وأنها كانت استمرار لأفكار أساسية مثل القوة والسيطرة والسلطة، من عصور قديمة وسوف تتطور أكثر من الفترات اللاحقة. كان مخطط المعابد في دور العبيد يتألف من فناء وسطي طويل وعلى جانبية عدد من الغرف مطابقاً للمعابد السومرية في الفترات اللاحقة . وكانت قرابين الأسماك تقدم في هذه المعابد، وهذا دليل على أهمية صيد الأسماك في هذا الدور كما كانت تشير إلى أن إله مدينة أريدو في دور العبيد كان إله مياه كما كان في العصور التاريخية وهو (الإله أيا- انكي) و في الواقع فأن التطور العام للمعابد في دور العبيد يشير إلى شكل المجتمع المميز في الفترة السومرية التالية، حيث كان الإله مالك الأرض وكان معبده مركز ثقل المجتمع، كان موجوداً في ذلك الحين. في الجانب الديني اختفت تماثيل الإلهة الأم في اريدو، وإن وجدت في بعض المواقع العبيدية. وبشكل عام يلاحظ اختلاف كبير في الأفكار الدينية عن الدور السابق (حلف) وهو يعارض الرأي القائل بأن سكان العبيد هم أصلاً مهاجرين من حضارة حلف – سامراء. ويمكن التعرف على معتقدات سكان العبيد من قبورهم حيث تشير التجهيزات التي كانت توضع مع الموتى إلى نوع من الاعتقاد بحياة ما بعد الموت. أما الدمى (وجميعها تمثل الإناث) فهي على نوعين الأول برأس إنسان والثاني برأس مشوه لعله يشير إلى الاعتقاد بالأرواح الشريرة.أما فخار هذا الدور الحضاري فتميزت في المرحلة الأولى (أريدو) بأنها قد صنعت على الدولاب البطيء الحركة وملون في معظم الأحيان بالألوان ثابتة وأحياناً على أرضية بيضاء بأشكالٍ هندسية والتقنية هي الألوان المائية. أما الأشكال الطبيعية فهي نادرة. وتختلف الألوان كثيراً من قطعة لأخرى. ويعتمد ذلك على درجة الحرارة ويغلب اللون القرمزي الغامق والألوان المائلة للخضرة، وأكثر الأشكال شيوعاً هي الأوعية الكبيرة ذات الجوانب المنخفضة والملونة بكثرة من الداخل، وقلما يكون لها صنوبر وهي دائماً بدون عرى. أما الفترة اللاحقة من عصر العبيد فتميز فخارها بلونه الأخضر (نتيجة فخره إلى درجة حرارة عالية جداً)، وأخرى ملونة باللون البني الغامق. وهو مثل سابقه مزخرف غالباً بأشكال هندسية ومشاهد طبيعة قليلة جداً توجد في الغالب في (كرسو) وفي تل العقير في

شمالي بابل وبمرور الوقت، أصبحت الأشكال أكثر تحديداً وأصبح الإنتاج أقل الاعتناء. وهذا يفصح عن تأخر واضح في فن زخرفة الفخار الملونة، وإلى جانب ذلك هناك أواني كثيرة لها صنابير على الرغم من أن العرى مازالت نادرة .

عصر السلالات المبكرة (Early Dynastic =ED) :

يعتبر الباحثون هذه الفترة بأنها مرحلة الدخول إلى العصور التاريخية، وتدخل باعتبارها جزءاً مما يعرف بالعصر البرونزي المبكر الذي يضم فضلاً عن هذه الفترة، العصر الأكدي وعصر أور الثالثة.

يقسم عصر السلالات المبكرة إلى مراحل ثلاث أساسية هي :

١- عصر السلالات المبكرة الأول من حوالي ٢٩٠٠-٢٧٥٠ ق.م (Early Dynastic 1 (ED1) =.

٢- عصر السلالات المبكرة الثاني من حوالي ٢٧٥٠-٢٦٠٠ ق.م = Early Dynastic 2 (ED2).

٣- عصر السلالات المبكرة الثالث من حوالي ٢٦٠٠-٢٣٥٠ ق.م = Early Dynastic 3 (ED3).

علماً بأن بعض الباحثين يقسمون المرحلة الثالثة إلى (ED3A) من حوالي ٢٦٠٠-٢٤٥٠ ق.م و(ED3B) من حوالي ٢٤٥٠-٢٣٥٠ ق.م .عموماً هذه التقسيمات لا ترتبط بأي تغير في التاريخ السياسي والذي لا نعرف عنه، على كل حال، الشيء الكثير. كما أن المحددات التاريخية التي ذكرت أعلاه تبقى تقديرات عامة غامضة.

التسمية .

يقصد بعصر السلالات المبكرة الفترة بين نهاية العهد الشبيه بالكتابي (Protoliterate) وحتى تأسيس الإمبراطورية الأكدية لذلك فأن من تسميات هذا العصر أنه عصر ما قبل سرجون باعتبار أن عصر سرجون، وهو عصر أول إمبراطورية في التأريخ الإنساني، يشكل حدثاً تاريخياً مهماً في تاريخ بلاد وادي الرافدين. وسمي عصر السلالات المبكرة لظهور حكام مستقلين أداروا شؤون دويلات المدن في بلاد وادي الرافدين، فالتسمية هنا تؤشر الجانب السياسي. ويسمى أيضاً عصر دويلات المدن(City- State) باعتبار أن السمة الأساسية في التنظيمات السياسية كانت دولة المدينة، وهي مؤسسة سياسية غير معروفة في الزمن المبكر، وكانت كل دويلة تضم مدينة وأحياناً عدة مدن مع الأراضي التي تحيط بها، ومنها المدن والقرى التابعة، فالتسمية هنا تؤشر نوعية الحكم. وأطلق عليه عصر اللبن المستوي المحدب (Plano convex – bricks)، لشيوع استعمال هذا النوع من اللبن في بناء العمارة الدينية (المعابد)، وهو لبن مستطيل الشكل محدب الوجه والقفا. هذه التسميات التي أشرنا إليها يمكن القول أنها ربما تكون قاصرة

بمفردها، لأنها تغفل جوانب وتقتصر على جوانب محددة. وبهذا العصر سوف ندخل العصور التاريخية، وهنا نشير إلى أن الفاصل بين قبل و بعد التاريخ هو تقسيم افتراضي، فظهور الكتابة باعتبارها الفاصل بين المرحلتين قد ساهم في تسريع العملية الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية وحتى الإتقان الصناعي. ولكن هذا التقسيم لا يؤشر أي اختلاف في علم الحياة البشرية والقدرات العقلية للسكان وإنها كانت متماثلة، فقد كان مناخها وبيئتها وصنائعها الأساسية متشابهة بالضبط ولم يكن الماضي التاريخي بأي حال من الأحوال أسمى من عهد ما قبل التاريخ. عموماً تبدأ النصوص تحدثنا عن رجال وأحداث. مع ملاحظة أنه لن يحدث ما يشير إلى حدٍ فاصل بين الفترتين. ومع ذلك، فأن هذا لا يعني أن من يكتب تاريخ هذه الفترة وهذا العصر يستطيع أن يجد كل ما يحتاجه من معلومات من النصوص بل عليه أن يعتمد جزئياً أيضاً على المصادر الآثارية.

المحاضرة السادسة

أصـــــل الســـــومـــــريين

أصل السكان في الجنوب الرافديني :

إنقسمت آراء الباحثين في مسالة السكان الأوائل في بلاد وادي الرافدين حتى يومنا. حتى إن أحد الباحثين وهو(برونر مايسنر) قال:(إن مسالة كون السومريين أصليين في ما هو جنوب العراق الآن، أو أنهم جاءوا من منطقة أخرى، لعلها مسألة لن تحل أبداً).

في عام ١٩٣٠م أوضح الباحث(إي – سبايزر) أن بعض أقدم المستوطنات في جنوب بلاد وادي الرافدين التي تشهد عليها المصادر المسمارية تحمل أسماء غير سومرية. وأستنتج أن ذلك هو الدليل على أقامت ناس غير سومريين في السهل الرسوبي تسبق تاريخياً دخول السومريين في المنطقة. وقد طور هذه الفرضية باحث أخر هو(بينو،لاندزبيركر) الذي تبنى رأي (سبايزر) في تشخيص كثير من أسماء المستوطنات المهمة في جنوب بلاد وادي الرافدين وبضمها أور،أريدو،اوروك، كلاُب،لارسا،أدب،نفر(نيبرو)،شروباك، ولگش، وگرسو، مَرد، إيسن، كيش، لرك، إشنونا، كيش، كوثى، أكشاك، وتوتب، أكد، سبار وبابل، بأنها أسماء غير سومرية. وذهب (لاندزبيركر) إلى أبعد من ذلك وادعى أن كثيراً من المصطلحات الثقافية الشائعة وكلمات ذات دلالات حضارية مهمة منها المهن والصناعات، مثل فلاح (إينگار= engar) وراعي (اودولudul=) و(نگار= ngar) ونحاس(تبيرا= Tibira) وحداد(سمگ=Simug) وفخار(بخار=Pakhar) وأسمي نهري دجلة والفرات، فضلاً عن مفردات أخرى عديدة كانت غير سومرية وأطلق على المتكلمين بهذه اللغة الأساسية الافتراضية التي تنتمي إليها هذه

الكلمات اسم (الفراتيبون الأوائل= Proto –Euphrateas). وفي عام ١٩٤٥ أقر الباحث (أنطون مورتكات) بوجود فجوة بين عصري العبيد والوركاء في نشاط السومريين، غير أنه كان شديد الحذر في ملاحظة هل كانوا آنذاك موجودين في حقبة الوركاء أو أنهم جاءوا من الخارج ؟ سؤال لا يمكن الإجابة عنه على أساس الأدلة المتاحة آنذاك .

وفي عام ١٩٤٨– ١٩٤٩القى الباحث (هنري فرانكفورت) محاضرة في جامعة أنديانا الأمريكية ثم نشرت في كتابه الشهير (فجر الحضارة في الشرق الأدنى) الصادر في عام ١٩٥٦، أورد فيها أدلة أن ثقافة دور العبيد في جنوب بلاد وادي الرافدين لها أصل إيراني في منطقة الهضبة الإيرانية. وأكد بأننا لا نستطيع أن نؤكد هل كان حملتها هم السومريين. ولم يقدم برهان قاطع على وصول لاحق للسومريين وأن التواصل في العبادة والعمارة يؤكد الرأي بأنهم كانوا عنصراً مهماً في عصر العبيد لأنهم مكثوا خلال الألف الثالث في جنوب البلاد.

المشكلة السومرية :

يقصد بالمشكلة السومرية البحث عن أصل السومريين على افتراض إنهم قوم غرباء عن بلاد وادي الرافدين وإنهم أسسوا حضارتها واخترعوا كتابتها الأولى، ولكن المشكلة المتعلقة بهم هي المكان الذي جاءوا منه إلى بلاد وادي الرافدين. فهذا الموطن الأصلي يعتبر مجهولاً لعدم وجود دليل لغوي أو أثر حاسم بأي موضع من العالم القديم.

كان البابليون والآشوريون من الشعوب المعروفة لدى المؤرخين الغربيين، إذ وردت أسماء عدد من حكامهم في الكتاب المقدس (التوراة بعهديه القديم والجديد).غير أن مسألة السكان الأقدمين في جنوب بلاد وادي الرافدين كان قضية أخرى، وإن الإشارة إلى أرض (شنعار) في أسفار التكوين و اشعيا ودانيال قد عدت مطابقة تقليدياً لـ(سومر) على افتراض طبيعي بأن بابل وأُروك وأكد قيل أنها في شنعار(سفر التكوين ١٠/١٠). كما كان برج بابل (التكوين ٢/١١). غير أنه تبين حديثاً أن شنعار ليست مشتقة من (سومر) بل من (شنهارا) الاسم الذي أطلقه السكان القانطين غربي الفرات على بلاد بابل في العهد الكشي (١٤٠٠–١١٥٥ق.م.) وفي الحقيقة فإن السومريين كانوا غير معروفين معرفة تامة تقريباً في الغرب حتى جرت الاكتشافات الرائعة في(تلو) وهي جزء من مدينة (لگش) الشهيرة، وكشف منها عن أول الأدلة على وجود السومريين، إذ احتوت النصوص على لقباً ملكياً هو(ملك سومر وأكد) مما جعل الباحث (جول أوبرت) يقترح في عام ١٨٦٩، أن شعباً قديماً سماه (السومري) لا يتكلم لغة سامية قد عاش في جنوب بلاد وادي الرافدين، وما أن أكتشف هذا الشعب حتى بدأت عملية البحث عن أصولهم، وفي أواخر القرن التاسع عشر أطلق الباحث (هلبريخت) رأياً مفاده أن السومريين أقدم سكان في

بلاد جنوب الرافدين مقابل (الساميون الغزاة) ورغم خطأ هذا الرأي إلا أنه ألقى ضوءاً مهماً على هذه القضية .

إن تاريخ دخول السومريين إلى القسم الجنوبي ومسألة كونهم أو عدم كونهم أول سكان المنطقة كانت محور اتصال لتبادل الآراء في مؤتمرٍ عقد في عام ١٩٣١في ليدن. وكان بحث (هنري فرانكفورت) قد بدأ بالمراجعة للحقبة التاريخية المعروفة باسم (عصر السلالات المبكرة ٢٩٠٠-٢٣٥٠ ق.م.) سنتناولها فيما بعد. إذ بدأت من هذه الفترة هيمنة الأقوام السومرية وانتشار لغتهم في هذا الدور المهم، وحين رجع إلى الفترة الأقدم (جمدة نصر) وجد أن ملامح الوجوه البشرية (من خلال الأعمال الفنية، نحت، أختام، تماثيل) لا يمكن تميزها عن الحقبة التالية (عصر السلالات المبكرة)، لذا فأنها سومرية كما درس النصوص الكتابية شبه الصورية من جمدة نصر ومن الدور الثالث من الوركاء ووجدها سومرية أيضاً، وهكذا فأنه حاول إثبات التواصل في سكان جنوب بلاد الرافدين بين عصري فجر السلالات وجمدة نصر. وكذلك فعل مع أدلة من عصر الوركاء (٣٨٠٠-٣١٠٠ق. م.) إذ ركز على التماثيل البشرية وخاصة الرجالية، فدهش للتشابه بين التنورات الطويلة واللحى والشفاه العليا، وعقدة الشعر خلف الرأس، ولاحظ أيضاً مواصلة في استعمال الأختام الأسطوانية والمنبسطة، وفي عمارة اللبن وأستنتج أن التطابق كان كافياً لإثبات إن السومريين كانوا في جنوب بلاد وادي الرافدين في أثناء فترة أوروك (الوركاء). وقال إن وصول السومريين إلى بلاد وادي الرافدين في بداية فترة أوروك أو بداية عصر العبيد ٦٠٠٠/٥٥٠٠- ٣٨٠٠ ق.م.

ونشير في هذا السياق إلى رأي الأستاذ طه باقر في ما يتعلق بنسب صفات جسمانية للسومريين كما فعل فرانكفورت، أعتماداً على التماثيل والمشاهد الفنية، فقد اشار باقر إلى أن ما يبدو من ملامح على التماثيل الادمية كان آمراً تتحكم فيه الأساليب والطرز الفنية المتبعة في النحت بالدرجة الأولى، وإن ما يظهر من هيئات وسحن على تلك التماثيل للأفراد لا يمثل في الواقع فروقاً أو ميزات قومية خاصة بالسومريين أو الأكديين، وإنما هي أزياء خاصة بمقام الشخص الممثل. ويؤكد هذا الرأي أن الملامح والسمات التي درج الباحثون على عزوها إلى تماثيل السومريين ظاهرة أيضاً في تماثيل الأشخاص في مناطق بعيدة عن المنطقة المفترضة للسومريين مثل ماري(تل الحريري في سورية). ومن جهة أخرى نجد أن التماثيل المنسوبة إلى السومريين من عصر السلالات المبكرة تختلف في أشكالها عن التماثيل الشهيرة للأمير گوديا(السومري) الذي عاش في حوالي٢١٤١-٢١٢٢ ق.م.

وأعتمد فرانكفورت على مطابقات الباحث المعماري(والتر اندريه) الذي أورد تشابهات بين أقدم مباني العبيد في أور وعناصر من التراث المعماري السومري والبابلي المتأخر. وكتب فرانكفورت(بما أننا وجدنا أنهم سومريون في عصر السلالات المبكرة فيجب أن نعدهم سومريين

في الحقب الأسبق أيضاً) أما بخصوص رأي (سبايزر) فأنه قال (الأماكن غير السومرية في جنوب بلاد الرافدين لا تحتاج إلى أن تكون مما قبل السومريين). ثم ختم دراسته بالقول (أن السومريين لم يكونوا فقط المؤسسين الرئيسين لحضارة وادي الرافدين، ولكنهم أيضاً أقدم القاطنين فيه).

ثم جاءت دراسة (لاندزبيركر) التي أشرنا إليها سابقاً، وبعدها دراسة (أنطون مورتكات) الذي تحاشى السير على خطى(فرانكفورت) لأنه وجد أن الدليل الأنثربولوجي(علم الإنسان) غير قابل للاستعمال، لأن الأنثروبولوجين صنفوا الدليل الجمجمي لجماجم السومريين بأنها من النوع مستطيل الرأس في حين إن ذلك كان يناقض بشدة نمط الموجود في النحت السومري. ولهذا لا يمكن لأحد أن يتأكد أن كانت الهياكل المدروسة هي لسومريين حقيقيين أو لسكان ثانويين أسبق من المنطقة. وأستنتج بأن البحث عن أصول وتاريخ أقدم للسكان السومريين ذو أهمية عظمى بطبيعية الحال، غير أنه من غير المحتمل حل المشكلة. وفي الستينات جاء لغوي كبير آخر هو (آدم فلنكنشتاين) وأدلى بدلوه في هذا الموضوع، ورغم أنه تجنب مسألة زمان و مكان ظهور السومريين ،ألا أنه أكد أنهم لم يكونوا أول شعب سكن المنطقة على الرغم من أنهم بالتأكيد خالقي أول حضارة في المنطقة. وأتفق معه عالم السومريات الشهير الأمريكي (صاموئيل نوح كريمر) بالقول (من المؤكد أن أوائل المستوطنين في سومر لم يكونوا سومريين) كما أنه عين بقوة هوية الفراتيين الأوائل لدى (لاندزبيركر) بأنها مطابقة لسكان بلاد جنوبي بلاد الرافدين في عصر العبيد، وأعتقد بأن السومريين وصلوا في وقت ما في النصف الثاني من الألف الرابع ٣٥٠٠– ٣٠٠٠ ق.م. أي في أواخر عصر أوروك في حدود ٣٤٠٠– ٣١٠٠ ق.م. حيث ظهرت الكتابة لأول مرة. ورغم هذه الآراء فإنه أعتقد أن موطن السومريين يجب البحث عنه في مكان ما في قرب بحر قزوين (بحر الخزر شمال إيران) لوجود صلة بين اللغة السومرية ولغات التاي تاي الأورالية، وهو رأي لم يؤخذ محمل الجد. عموماً فإن هذه اللغة تمتاز بأنها لغة التصاقية(agglutinative) وليست متصرفة (inflected) مثل اللغات السامية والهند– أوربية، وتشبه في التركيب اللغة التركية، ومجموعة اللغات الفنلندية– الأوجرية (نسبة إلى جبال الأورال والتاي) وبعض اللغات القوقازية. غير أن السومرية كانت لغة مستقلة من حيث المفردات والنحو ولا يبدو أنها تتصل بأية لغة أخرى حية أم ميتة. ويعتقد عدد من العلماء أن المفردات السومرية تتكون من طبقتين مختلفتين، السومرية نفسها مع عدد من الكلمات الداخلية المقترضة من لغة أخرى لم تحدد بعد، ويفترض من أنها لغة شعب محلي سبق السومريين (الفراتيون الأوائل كما أشرنا) ويُعتقد أن الألواح الكتابية القديمة من عصر الوركاء الرابع تعود إلى هذه اللغة، وعليه فأن السومريين ربما اقتبسوا لغتهم ونظامهم الكتابي من مجموعة لغوية أخرى. وتقول الباحثة (جون اوتس) وبتقييم حذر، هو أنه رغم أننا نفترض على نحو معقول أن سكان بلاد وادي ما بين

النهرين قبل التاريخ، كانوا من عناصر مختلفة إلا أنه لا توجد لحد الآن أدلة قاطعه تثبت وجود طبقة لغوية سبقت السومريين نظرياً، وتستمر بالحديث أن مصطلح (سومري) يستعمل في الحديث عن العصور التاريخية بمعنى حضاري لوصف سكان ذوي عناصر لغوية مختلطة. أن استحالة تحديد الانتماء اللغوي تحديداً قاطعاً لأية مجموعة من عصور ما قبل التاريخ أمر بديهي، وإن كان هناك سبب يزداد قبولاً للاعتقاد بأن السومريين كانوا جزءاً من السكان الأصلين على الأقل. وتشير البيانات الآثارية إلى درجة واضحة من الاستمرارية منذ أقدم المستوطنات الزراعية في سومر إلى ذلك العصر الذي يمكن فيه تحديد اللغة المدونة ، بوصفها سومرية وهكذا يصبح مؤكداً وجود شعب كبير ناطق باللغة السومرية. ولا توجد في أية فترة أدلة مقنعة بحدوث (غزو) من شعب جديد كما أنه لا يمكن أن نحدد وطن افتراضي قدم منه السومريين بلغتهم وحضارتهم الفريدتين، وتعد هذه حجة أقوى. أما رأي علماء اللغة، من أن الشعب العبيدي ليس سومرياً، فأنه يفتقر إلى الصحة، لأن انتشار سمات حضارية جديدة لا يتطلب هجرة جديدة للناس. وعلاوة على ذلك تبين المعلومات الإثارية بدون أي شك معقول أن وطن شعب العبيد كان في سومر على وجه الدقة في المنطقة التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالسومريين، بينما أظهرت التنقيبات في شمال سوريا مؤخراً أن الحضارة السومرية، انتشرت مثل حضارة شعب العبيد شمالاً في معظم الشعوب المعاصرة نحو الشمال والجنوب والشرق إلى أن سكان سومر في حوالي ٥٠٠٠ ق.م. ربما كانوا متنوعين لغوياً. وإن يبقى الافتراض القوي بأن اللغة السومرية كانت هي الغالبة .

ويخلص (هاري ساكز) مؤلف كتاب عظمة بابل إلى القول (أنه مهما كان المكان الذي جاءوا منه أولاً، فأنه لم يكن بلاد سومر) ولو أن هناك من تحدى هذا الافتراض، إلا أنهم لم يقدموا أدلة مقنعة لإدعاتهم .أما الاتجاه الذي جاءوا منه، فهناك من يقول أنهم جاءوا من الخليج العربي، وهو ما يتفق مع بعض الأفكار السومرية ومنها، أن الإله إنكي السومري كان اله مياه، وهو اله محلي في مدينة أريدو، وهي تقع على ضفاف خور متفرع عن الخليج، وقد ذكرت على أنها واحدة من أقدم مواطن الاستيطان في الجنوب. وهناك من يرى أن (دلمون = البحرين) تمثل أقدم مستوطن لهم يسبق اريدو، وهذا يدل على أنهم دخلوا عن طريق الخليج. وهناك رأي آخر مفاده أن السومريين جاءوا إلى جنوب بلاد وادي الرافدين من الشرق أو الشمال الشرقي ، أي من بلاد عيلام ، فاعتماداً على المآثر الأدبية القديمة وخاصة الملاحم، التي تؤكد العلاقات الثقافية بين سومر وعيلام في أواخر العصور في فترة ما قبل التاريخ ، ومن ثم في العصور التاريخية ، لذا أُفترض أن عيلام هي الموطن الأول، وقد اعتبرت الزقورة في الديانة السومرية دليلاً على الموطن الأول للسومرين كان في المنطقة الجبلية. غير أن هذا الأسلوب في المناقشة مشكوك فيه لأن الزقورة التي تمثل الجبل الكوني لم تكن مرتبطة بمنطقة معينة بل بعلم الكونيات

الذي كان موجوداً في العالم القديم، مع اختلافات متباينة من مصر إلى الصين. وهناك من يحاول ربط الموطن الأصلي للسومريين ببلاد وادي السند في جنوب بلوجستان، ومن المحتمل أن تكون هناك علاقة بين حضارة أقوام وادي السند (خرابا) الذي لم تحل رموز كتاباتهم، وبين الأقوام السابقة للأقوام الدرافيدية و الهندو– أوربية الموجودة حالياً في جنوب الهند. وهذه النظرية والتي تقول بوجود علاقة عرقية حقيقية بين السومريين وبين أقوام (خرابا) ذات جاذبية خاصة لأولئك الذين يحاولون أن يجدوا صلة لغوية بين السومرية واللغة الدرافيدية. وهناك دلائل قوية على شكل طرز فنية وأشياء مادية خاصة بأحد الحضارات وجدت في مواقع الأخرى، والعلاقات تجارية في الألف الثالث ق.م. بين السومريين وأقوام وادي السند أو بلوجستان، إضافة إلى ذلك فقد وجد تمثيل مناظر طقوسية تتضمن الثور الهندي ذا الحدبة في كل من أور وسوسة. ومن خلال أدلة الألف الثالث ق.م. وجدت النظرية التي تقول بالعلاقة بين السومريين والدرافيديين وأنها ترجع إلى عصر الوركاء، وأن الارتباط كان لغوياً وعرقياً، غير أن ما ينقص هذه النظرية هو الإثبات. وهناك نظرية تجمع بين الأخبار المتوافرة والأدلة الأثرية لتقديم نظرية واحدة تفترض وجود موجتين من السومريين جاءتا من الشرق، الأولى سلكت البحر إلى الخليج والأخرى سلكت الطريق البري عبر إيران مع مجموعة أخرى من نفس الأقوام هاجرت بعد ذلك إلى وادي السند، ومن المستحيل القول بشكل قاطع بأنه لا يمكن أن تكون هناك حركات عرقية من هذه الاتجاهات، إذ ليس هناك دليل في الوقت الحاضر لإثبات حدوثها، حيث يمكن تفسير العلاقات الأولى مع الهند كتلك التي مع مصر، على إنها نتيجة علاقات تجارية ولا تدل بالضرورة على تحركات عرقية واسعة في حين أن الأصل العام للدرافيديين والسومريين أو حتى العلاقات الوثيقة بينهم لا يمكن أن يقال عنها بأنها جاءت من لا شيء. وأكثر ما يمكن أن يستنتج باطمئنان في الوقت الحاضر هو أن السومريين جاءوا من مكان ما من شرق بلاد وادي الرافدين. وهنا نود أن نشير رأي الباحث العراقي الدكتور نائل حنون الذي عرضه في كتابه(حقيقة السومريين ودراسات أخرى في علم الآثار والنصوص المسمارية) وقد بدأ بعرض إكتشاف اللغة السومرية والإشارة لأراء الباحثين هنكس وكريمر وياكوبسن وكَليب وهم من أشهر من عمل في هذا المجال، وحاول تفنيد ارائهم وفرضياتهم حول وجود السومريين في جنوب بلاد وادي الرافدين في الألف الثالث ق.م. وإختراعهم للكتابة المسمارية في عصر أوروك. واخيراً يخلص إلى القول:(إن الإفتراض بوجود شعب سومري، يستدل على وجوده من وجود اللغة التي أطلق عليها إسم اللغة السومرية ومن أسماء الأعلام المصاغة بهذه اللغة، يثير من الأسئلة أكثر مما يجيب عليه. ويتضح أيضاً أنه لا توجد أدلة، سوى اللغة، على وجود السومريين بإعتبارهم قوماً عاشوا مع الأكديين أو سبقوهم على أرض جنوب بلاد وادي الرافدين.). ثم يستنتج بأن المفردات والمقاطع التي كان يعتقد بأنها سومرية قد وضعت من قبل الأكديين!!! وهو بهذا ينفي وجود الشعب والحضارة

السومرية، وإن من أنجز حضارة العراق القديم هم الساميون، ولكنه لم يوضح لنا الدوافع التي جعلتهم يكتبون هذه المقاطع والمفردات في قوائم وقواميس، ويضعون قواعد كتابية لتتحكم بصياغتها وهم ليسوا بحاجة إليها ولديهم لغة خاصة بهم. وهو بهذا للأسف الشديد يجاري بعض الباحثين العرب والأجانب الذين يحاولون عبثاً المساس بالحضارة السومرية وإسناد المنجزات الحضارية إلى أقوام أو بقاع مجاورة أو بعيدة عن بلاد وادي الرافدين، كما هي محاولة أصحاب الرأي التالي. وهو من الأراء الحديثة التي تشير إلى أن منطقة البحر الأسود يمكن أن تكون موطن السومريون الأول، فبعد أن استقرت مجاميع الصيادين والحاصدين واتخذت لها طريقة عيش أكثر إستقراراً، تمثلت بتشييد القرى الثابتة، وصيد الحيوانات والأسماك في المناطق القريبة، وجمع الفواكه والجوز والحنطة والشعير البريين الذين تعلم فيما بعد زراعتهما. ومع حلول فترة الدرياس الأصغر أو الأحدث، والتبدل المفاجيء إلى مناخ أكثر برودة وجفافاً، إختفت هذه الموارد الطبيعية. وقد هجرت أريحا، مثلما هجرت قرى أخرى عديدة. وتحولت سهول أوكرانيا وجنوبي روسيا إلى صحاري جرداء، وهذا ما أدى إلى تجمهر القبائل قرب الواحات حيث كانت المياه والطرائد متوفرة بكثرة، كما هو الحال عند حافة البحر الأسود. وعند مناطق الدلتا والأراضي عند منحدرات الأنهار وقرب حافات البحيرات الضحلة – وربما بسبب التبعثر غير المقصود لبعض الحبوب البرية التي قاموا بحصدها فقد تعلمت هذه القبائل درس ونثر الحبوب، وهي الخطوة الأولى للزراعة. وقد تاجروا بالطعام والبضائع والأفكار مع آخرين كانوا حول البحيرة. وبعد إنتهاء الفترة المسماة العصر الدرياسي الأصغر في حدود ٩٤٠٠ ق.م. بشكل مفاجيء كما بدأت، أدى الفء والمطر إلى تليين خشونة المنطقة الريفية المحيطة، وخلال فترة مئات قليلة من السنين منحت الأرض حياة جديدة حينما عادت الطرائد والثمار البرية والجوز والأعشاب، وشرع الناس بالإنتقال بعيداً عن الواحات، مصطحبين مهارة الرزاعة المكتسبة حديثاً، فانتشروا في الأناضول والشرق وشمالي بلاد وادي الرافدين، وازدهروا في الوديان التي أرتوت جيداً من جديد وعلى طول سواحل البحيرات. وفي سنة ٦٢٠٠ ق.م. تعكر صفو هذه الحياة الهادئة مرة ثانية بواسطة عصر جليدي آخر مصغر داهم النصف الشمالي من الكرة الأرضية، فهبطت درجات الحرارة وتضاءلت الأمطار، وأكتسحت موجة من الجفاف تارة أخرى جنوب شرقي أوربا وأوكرانيا وجنوبي روسيا، وعلى أثر ذلك تقلصت بحيرات و أنهار الأناضول وجنوب غربي آسيا وجنوب شرقي أوربا. وهجر العديد من القرى الزراعية الموجودة في الأناضول وعلى طول الهلال الخصيب، بينما تضائلت أخرى. وتراجعت الجماعات البشرية، التي كان العديد منها مزارعين في هذه الأثناء نحو البقاع المائية الصغيرة وإلى الأنهار القليلة التي كانت مازالت تتدفق إلى حافة البحر الأسود. وجاء الفرج في حوالي العام٥٨٠٠ ق.م. حينما حل الدفء والمطر، فقام بعض من الساكنين حول البحيرة بالمغادرة كما حصل لشعب حلف، فقاموا بالسكن ثانية في بعض المواقع

المهجورة الموجودة إلى الجنوب. وبحدود سنة ٥٦٠٠ ق.م. حدث الفيضان الأعظم بإندفاع المياه من البحر الأبيض المتوسط عبر وادي البسفور وأندفع بسرعة نحو بحيرة البحر الأسود. وكانت سرعة إندفاع التيار نحو ميلاً في اليوم الواحد، وحطمت المياه المالحة المتدفقة كل مظاهر الحياة فماتت كافة الأسماك في البحيرة العذبة، وأستمر تدفق المياه بدون توقف ساعة إثر ساعة ويوماً بعد يوم غامراً كل ماهو بطيء الحركة ومجبراً كل ماعداه للتوجه إلى أعالي الأنهار أو نحو الهضبة الشبه الصحراوية التي من خلالها كان الوادي قد قطع. إنه لمن العسير تخيل رعب أولئك المزارعين الذين أرغموا على مبارحة حقولهم بسبب حدث لم يكن في إمكانهم فهمه، وإن قوة هذا العنف الذي لا يصدق كانت كما لو أن غضب جميع الالهة مجتمعين قد صب عليهم. فهربوا مع عوائلهم كبيرهم وصغيرهم، حاملين كل ما يمكن حمله، وبرفقتهم مفردات من لغات أخرين وأفكار جديدة، وتقنيات جديدة جمعت من حول البحيرة. وعليه فإن الباحثين يعتقدون قسم من هؤلاء هرب نحو أوربا وربما كانوا الشعب الذي تحدث باللغة المعروفة بالهندو– أوربية، في حين هرب آخرون (متحدثوا اللغات السامية) نحو الجنوب عابرين هضبة الأناضول، ليتبعثروا بعدها بشكل واسع بسبب تلك المجموعة الوعرة من الوديان العميقة والجبال. وفي الأناضول قام البعض من هؤلاء اليائسين بمحاصرة بعض القرى الصغيرة، التي كانت حينئذ قد أحرقت وسويت بالأرض. وكانت العديد من القرى الزراعية المهجورة الموجودة في الشرق قد سكنت مرة ثانية وبصورة مفاجئة، واستقر غرباء ذوي تقنية زراعية متقدمة وحيوانات داجنة من أصول أجنبية في مصر، إستقروا على دلتا النيل. وظهر أخرون عديدون من شعب (حلف) بموازاة الحافات الشمالية لبلاد ما بين النهرية وجازفوا بالتوجه جنوباً نحو وديانها الجافة وصولاً لأماكن بعيدة لم يتجرأ أي من المزارعين قبلهم أن يفعلوا ذلك(يقصد بهؤلاء السومريون سكان الجنوب الأوائل).

ويرى علماء آخرون أن الموطن المحتمل للسومريين هو بلاد وادي الرافدين نفسها، وأنهم قد إنتقلوا من الشمال بإعتبار أنهم إمتداد لسكان القرى الزراعية التي قامت في العصر الحجري الحديث، ومن هناك زحفوا نحو الجنوب حيث الأرض البكر التي أصبحت مهد المدنية والحضارة ذات القوام الزراعي المعتمد على الري.

كل ما عرضناه يمثل نظريات وفرضيات وآراء وإستنتاجات لم تصل في أقصى مدياتها إلى حد الجزم، بل هي مثار تعليق ونقاش وفي إنتظار المزيد من الدعم أو التفنيد.

المحاضرة السابعة

عصر السلالات المبكرة (Early Dynastic =ED).

يعتبر الباحثون هذه الفترة بأنها مرحلة الدخول إلى العصور التاريخية، وتدخل باعتبارها جزءاً مما يعرف بالعصر البرونزي المبكر الذي يضم فضلاً عن هذه الفترة، العصر الأكدي وعصر أور الثالثة.

يقسم عصر السلالات المبكرة إلى مراحل ثلاث أساسية هي :

١- عصر السلالات المبكرة الأول من حوالي ٢٩٠٠-٢٧٥٠ ق.م (Early Dynastic 1 (ED1

٢- عصر السلالات المبكرة الثاني من حوالي ٢٧٥٠-٢٦٠٠ ق.م = Early Dynastic (ED2).

٣- عصر السلالات المبكرة الثالث من حوالي ٢٦٠٠-٢٣٥٠ ق.م = Early Dynastic (ED3)).

علماً بأن بعض الباحثين يقسمون المرحلة الثالثة إلى (ED3A) من حوالي ٢٦٠٠-٢٤٥٠ ق.م و(ED3B) من حوالي ٢٤٥٠-٢٣٥٠ ق.م .عموماً هذه التقسيمات لا ترتبط بأي تغير في التاريخ السياسي والذي لا نعرف عنه، على كل حال، الشيء الكثير. كما أن المحددات التاريخية التي ذكرت أعلاه تبقى تقديرات عامة غامضة.

التسمية :

يقصد بعصر السلالات المبكرة الفترة بين نهاية العهد الشبيه بالكتابي (Protoliterate) وحتى تأسيس الإمبراطورية الأكدية لذلك فأن من تسميات هذا العصر أنه عصر ما قبل سرجون باعتبار أن عصر سرجون، وهو عصر أول إمبراطورية في التأريخ الإنساني، يشكل حدثاً تاريخياً مهماً في تاريخ بلاد وادي الرافدين. وسمي عصر السلالات المبكرة لظهور حكام مستقلين أداروا شؤون دويلات المدن في بلاد وادي الرافدين، فالتسمية هنا تؤشر الجانب السياسي. ويسمى أيضاً عصر دويلات المدن(City- State) باعتبار أن السمة الأساسية في التنظيمات السياسية كانت دولة المدينة، وهي مؤسسة سياسية غير معروفة في الزمن المبكر، وكانت كل دويلة تضم مدينة وأحياناً عدة مدن مع الأراضي التي تحيط بها، ومنها المدن والقرى التابعة، فالتسمية هنا تؤشر نوعية الحكم. وأطلق عليه عصر اللبن المستوي المحدب (Plano convex - bricks)، لشيوع استعمال هذا النوع من اللبن في بناء العمارة الدينية (المعابد)، وهو لبن مستطيل الشكل محدب الوجه والقفا. هذه التسميات التي أشرنا إليها يمكن القول أنها ربما تكون قاصرة بمفردها، لأنها تغفل جوانب وتقتصر على جوانب محددة.

تميز هذا العصر بتوغل الأقوام السامية في بلاد سومر(سوف نناقش موضوع الساميين في موضعٍ آخر) والتي سوف يطلق عليها فيما بعد الأقوام الأكدية (في القرن الرابع والعشرين ق.م).

وبهذا العصر سوف ندخل العصور التاريخية، وهنا نشير إلى أن الفاصل بين قبل و بعد التاريخ هو تقسيم افتراضي، فظهور الكتابة باعتبارها الفاصل بين المرحلتين قد ساهم في تسريع العملية الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية وحتى الإتقان الصناعي. ولكن هذا التقسيم لا يؤشر أي اختلاف في علم الحياة البشرية والقدرات العقلية للسكان وإنها كانت متماثلة، فقد كان مناخها وبيئتها وصنائعها الأساسية متشابهة بالضبط ولم يكن الماضي التاريخي بأي حال من الأحوال أسمى من عهد ما قبل التاريخ. عموماً تبدأ النصوص تحدثنا عن رجال وأحداث. مع ملاحظة أنه لن يحدث ما يشير إلى حدٍ فاصل بين الفترتين. ومع ذلك، فأن هذا لا يعني أن من يكتب تاريخ هذه الفترة وهذا العصر يستطيع أن يجد كل ما يحتاجه من معلومات من النصوص بل عليه أن يعتمد جزئياً أيضاً على المصادر الآثارية.

المصادر الكتابية واستعمالاتها :

إن مصادرنا عن بداية عصر السلالات المبكرة هي بضع قطع حجرية من القطع التالفة. أما المصادر الكتابة الرئيسة فهي النصوص الملكية والمعاهدات والوثائق الإدارية ونتائج مدارس الكتبة. أما المصادر الثانوية فهي جداول الملوك السومريين وملاحم ملوك الوركاء وما حفظه أدب نصوص قراءة الطالع الأكدية من ذكريات تقليدية عن حكام عصر السلالات المبكرة. ومع هذا فأن من يقرأ هذه المصادر بنوعيها عليه أن يكون حذراً، لأن معظم ما يستنتج منها هو بالضرورة تخميني.

يمكن أن ندرج هذه المصادر بشقيها الرئيسي والثانوي في الترتيب التالي :

١- جداول الأحداث الهامة : وهذه الجداول كان يؤرخ بها، إذ كان من الواجب تثبيت زمن المعاملات والصفقات التجارية المسجلة في هذه الوثائق)الوثائق الإدارية والاقتصادية) في حينه لأغراض عملية، وفي وقت مبكر يعود إلى حوالي ٢٥٠٠ ق.م. ولم يضعوا تاريخ لهذه الوثائق من نقطة بداية محددة مثل بداية حكم ملك معين، وإنما اعتمدوا على طريقة تسمية السنوات بحوادث دينية وسياسية هامة. إن هذه الطريقة في وضع تاريخ الأحداث تمدنا بمعلومات تاريخية ذات قيمة رئيسية. ولتحديد السنوات التي تؤرخ بها سجلاتهم بدقة أكثر، قام الكتّاب أيضاً بوضع جداول تضم أسماء السنين المستخدمة خلال حكم محدد أو خلال سلسلة متتابعة من الحكام، وقد مكنت هذه الجداول القديمة الباحثين من ترتيب الأحداث التاريخية وفقاً لتسلسلها الزمني الصحيح. إذ أمكن تثبيت تواريخ تقديرية مؤكدة نسبياً إلى عهد أور- نانشة (٢٤٩٤-٢٤٦٥ ق.م) ونزولاً من عهده لدينا سلسلة كاملة من النصوص الملكية التي تشير إلى أن الملك الفلاني، هو ابن الملك الفلاني، ومن أن نحسب الأجيال المتعاقبة للوصول إلى تاريخ تقريبي لكل ملك.

٢- النصوص النذرية والبنائية الأولى: يمكن القول أن النصوص التذكارية قد ظهرت مع ظهور الحكم والدولة في بلاد وادي الرافدين مع بداية عصورها التاريخية في الألف الثالث ق.م. فقد دأب الملوك منذ العصور المبكرة على ترك نقوش تذكارية تخلد أعمالهم وتعلن عن اهتمامهم بالعمران والتزامهم برعاية المعابد والتقرب إلى الالهة. وهكذا وصلتنا نصوص تذكارية تُكمل، مع النصوص المتعلقة بشؤون الحياة اليومية والنصوص الأدبية، رسم صور لمظاهر الحضارة القديمة. والنصوص التذكارية بخلاف النصوص الاقتصادية مثلاً، كانت تنقش لتبقى على مر الأجيال. لذا كان بديهياً أن يكون الحجر مادة لها لضمان بقائها. ولعل أقدم كتابة تذكارية أكتشفت حتى الآن هي التي وجدت على كسرة من إناء حجري نقش عليها ملك كيش (ميباراجنسي٢٦٣٠-٢٦٠٠ ق.م) وهو والد آگا منافس گلگامش، وقد قدمت هذه الآنية هدية للمعبد. وأستمر هذا التقليد على مر العصور وشمل مواد أخرى كانت تقدم هدايا للمعابد وتحمل نقوش كتابية باسماء الملوك، ومنها التماثيل ومن أشهرها تمثال الملك گوديا. عموماً في البدء اقتصرت هذه النصوص التذكارية على ذكر اسم الملك ولقبه، ولكن مع بداية عصر السلالات المبكرة الثالث بدا الملوك يضمنون ألقابهم مقاطع تشير غلى اهم إنجازاتهم، ثم تطورت إلى هذه المقاطع واصبحت أطول و أكثر تفصيلاً إلى أن باتت نواة للنصوص الملكية البابلية التي انفصلت عن النصوص التذكارية. عموماً لدينا ايضاً ألواح طينية وحجرية وعتبات وأبواب وأوانٍ ومزهريات يمكن أن تدرج ضمن هذا النوع وامتازت بجملها التكريسية المختصرة، لذا فأن قيمتها التاريخية محدودة ، وقد وجد منها حوالي ألف نص.

٣- الرسائل الملكية: يمكن إعتبار رسالة الملك اينمركار إلى حاكم أرتا في القصة المعروفة باسم الملكين، أول رسالة في التاريخ لو صح ما جاء في القصة. وكانت الرسائل من النصف الثاني من الألف الثالث ق.م. تتصف بقصرها وأسلوبها المختصر واقتصارها على الأوامر أو الملاحظات الرسمية. إن الرسائل من هذا النوع امتازت بكشفها الدوافع والإغراءات والخصومات والدسائس التي كانت تجري من وراء الستار. ومن المثير أن هذه الرسائل لم تصلنا بشكلها الأصلي وإنما نسخ كان يعدها أساتذة وطلاب في المدارس السومرية (أدوبا =Edubba و تعني هذه الكلمة حرفياً بيت الألواح) بعد عدة قرون.

٤- رسائل الموظفين والإداريين وعدد من الرسائل الشخصية أيضاً. ومما يؤسف له ان الرسائل لم تحمل تاريخاً إلا ما ندر.

٥- تقارير إخبارية ذاتية للشخصيات الفاعلة، بخاصة الملوك والحكام، وكذلك موظفين كبار. وهي مصوغة في هيئة نقوش أو بيانات شخصية تتضمن معلومات أو تصريحات ذات طابع مختلف أو رسائل.

٦- وثائق متنوعة، وتشمل المعاهدات السياسية أيضاً، وغالباً ما تكون هذه مؤرخة.

٧- نصوص في الكهانة والعرافة والتنبوء وما شابهها.

٨- الملاحم والأساطير =Myths,Epics .

وقد ظهرت هذه الملاحم والأساطير من خلال نسخ تؤرخ من الألف الثاني ق.م. وهي في أصولها تعود إلى عصر السلالات المبكرة الثاني أو بداية عصر السلالات المبكرة الثالث. والأساطير هي قصص نسجت حول تصرفات ومآثر الآلهة، والتي يظن أنها تعكس الحياة الاجتماعية لتلك الفترة، عندما تبلور المجتمع السومري في دويلات المدن، أي حسب المصطلحات الآثارية إلى عصر السلالات المبكرة الأول أو حتى في دور جمدة نصر(أواخر العصر الشبيه بالكتابي). أما الملاحم فأنها تتناول مغامرات لبطل خرافي، أو لبطل تاريخي، ترفع أعماله إلى مستوى المعجزات والخرافة، كما هو الحال مع گلگامش البطل الأسطوري الشهير(تأريخياً هو الملك الرابع في سلالة حكام مدينة الوركاء، فبعد إنيمركار وأبيه، هناك دموزي الراعي الشهير ثم گلگامش من عصر السلالات المبكرة الثالث من حوالي ٢٦٠٠ ق.م.) .

٩- أدب الرثاء .

وهو نوع من الآداب التي تتناول وبأسلوبٍ شعري حالة الحزن والبكاء، التي تقع بها بلاد سومر ومدنها في أوقات المحنة والهزيمة. ويمكن تقسيم ما لدينا من نصوص أدب الرثاء بشكل عام، والتي تقدر بنحو ١٦ نصاً كتبت باللغتين السومرية والأكدية، إلى عدة مجموعات منها المراثي التاريخية والمراثي الشخصية والمراثي الشعائرية ومراثي الآلهة التي تختفي. وأقدم نموذج معروف من أدب البكاء الذي يمدنا بقليلٍ من المعلومات التاريخية الهامة، وجد مدوناً على لوحٍ طيني جاءنا من مدينة (لگش) وهو يصف بشيء من التفصيل تدمير مدينة لگش الفظيع على يد عدوتها القاسية مدينة(أُوما) وهناك مرثية أور الشهيرة. وهناك مرثية أور وأخرى لأريدو وكذلك للوركاء ونفر.

١٠- جداول الملوك السومرية. بدءاً يمكن القول أن هناك الكثير من النصوص الكتابية المهمة التي تعرف باسم قوائم الملوك، وهي نصوص سومرية وأكدية تتضمن قوائم بأسماء الملوك القدامى، بحسب السلالات أو التسلسل الزمني لحكمهم، مع عدد سني حكم كل منهم. وفي اللغة السومرية لدينا قائمتان من هذا النوع جمعت معلوماتهما ودونتا في العصر البابلي القديم. وهاتان القائمتان هما (قائمة الملوك السومرية) و (قائمة ملوك لگش) والقائمتان مهمتان في إلقاء الضوء على السلالات الحاكمة في عصر السلالات المبكرة. القائمة الثانية تقتصر على حكام مدينة لگش. في حين تعطينا الثانية جداول تسلسل الحكام في بلاد سومر وبلاد بابل من وقت (هبوط

الملكية من السماء) إلى نهاية حكم الملك الرابع عشر من ملوك سلالة إيسن الأولى (سن-ماگر في حدود ١٨١٧ ق.م.) وهذا يعني أن القائمة دونت في عهد الملك الأخير وهو (دامق-إليشو ١٨١٦-١٧٩٤ ق.م) وقد جاءت قائمة الملوك السومرية بأكثر من عشرين نسخة معظمها من العصر نفسه، ولكنها أستنسخت في مكتبة آشور بانيبال الشهيرة في الألف الأول ق.م. عموماً لا يمكن الاعتماد عليها من وجهة نظر التسلسل التاريخي بالنسبة للفترة السابقة للسلالة الأكدية، وقد نقلت أسماء الحكام بشكل غير جدير بالثقة، وللدقة هناك إغفال أحياناً لبعض الأسماء ناتج عن تكرار استنساخ النص عبر القرون. وبعض هذه الأسماء من عصر السلالات المبكرة تتفق تماماً مع أسماء وردت في وثائق أصلية من العصر نفسه. غير أن ذلك ليس بالمعضلة. بل أن المعضلة هي أن وجهة نظر الكتبة الذين كتبوا تلك الجداول، فمعلوماتهم التاريخية للفترات المبكرة ممتازة، غير أن الإفتراضات التاريخية التي اعتمدوها في تنظيم الجداول غير سليمة. فقد افترضوا أنه لم يكن بالإمكان حكم بلاد بابل في فترة زمنية إلا من قبل سلالة واحدة. كما كانوا حريصين على أن لا يهملوا أي من خزين الأسماء التي وصلتهم من التاريخ السحيق. وكانت النتيجة أن نظمت السلالات المتعاصرة التي كانت تحكم الأجزاء المختلفة من بلاد بابل على أنها حكمت جميع بلاد بابل بالتعاقب. وعلى الرغم من رغبة من كتبوا هذه الجداول بالكمال، إلا أنه قد سقطت منهم بعض الأسماء من الأخبار الخاصة بالفترة من عصر السلالات المبكرة إلى العصر البابلي القديم. فمثلاً إن حكام وأمراء مدينة لگش الشهيرين غير مذكورين في هذه الجداول، رغم أن الكثير منهم يستحق الذكر بين العظماء من ملوك بلاد وادي الرافدين. كذلك فأن هذه الجداول خصصت لملوك بعض المدن في فترة ما قبل الطوفان وأيضاً من جاءوا مباشرة بعد الطوفان (سلالة كيش الأولى مثلاً) سنوات حكم خيالية من حيث طول المدة بلغت حوالي ربع مليون سنة للملوك الثمانية في فترة ما قبل الطوفان، وحوالي خمس وعشرون ألف سنة بالنسبة لأول سلالتين بعد الطوفان، من الواضح أن سنوات الحكم هذه ليست من التأريخ في شيء، وإنما هي أرقام أسطورية لسنوات حكم ملوك دخلوا عالم الخرافة بعد موتهم، ويصعب علينا والحال هذه التوصل إلى معرفة صحة عدد السنوات التاريخية التي تضمنتها هذه القائمة، ولم يتمكن أحد من العلماء أن يعطينا إجابة مقنعة حول هذا الموضوع حتى يومنا هذا. فهناك من يعتقد أن الأمر ربما يكون ناتجاً من الاحترام الذي يكنه السومريون لعهود حضارة بلادهم الممتازة.

إن هذه الوثيقة الفريدة هي خليط من الخيال والواقع، وغالباً يكون من الصعب الجزم متى تبدأ الحقيقة وينتهي الخيال. وكما أشرنا فإن مؤلفي(مؤلف) هذه الوثيقة كان واقعاً تحت تأثير الوهم بأن جميع السلالات التي وضعها الثبت قامت الواحدة بعد الأخرى في تتابع ثابت، في حين أننا نعرف أن بعضها كان معاصراً للآخر في حالات كثيرة. ومع كل المآخذ على هذه الوثيقة، فأنها

يمكن أن تمدنا بمعلومات تاريخية لا تقدر إذا ما تم إستخدامها بحذرٍ وتفهم. يبدأ هذا النص بالعبارة التالية:

(بعد أن هبطت الملكية من السماء، أصبحت أريدو مقر الملكية، في أريدو حكم آلوليم ٢٨٨٠٠ سنة كملك و حكم لجار ٣٦٠٠٠ سنة ، ملكان حكما ٦٤٨٠٠ سنة . ثم هجرت أريدو ونقلت ملكيتها إلى بادتبيرا).

ويستمر النص على هذا المنوال ويذكر وجود خمسة مدن قبل الطوفان هي :

١- أريدو: وهي مدينة ذات أهمية تاريخية كبيرة من بلاد سومر في جنوب بلاد وادي الرافدين .

٢- بادتبيرا : من المحتمل أنها تل "مدينة" حالياً.

٣- لَرك : هي مدينة لم تشخص أو يحدد موقعها إلى الآن.

٤- شروباك : وهي تل فارة الحالية، وهي مدينة تعود بتاريخها إلى فترة العبيد.

٥- سبار: أبو حبّة وتقع أطلال هذه المدينة بالقرب من مدينة اليوسفية، وهي من المدن التي قدمت الكثير من الرُقم الطينية تقدر بحوالي ٧٠ ألف رقيم، إذ عثر فيها على مكتبة كاملة في عام١٩٨٥- ١٩٨٦ من قبل قسم الآثار في كلية الآداب / جامعة بغداد. وهذا الموقع تحت إشراف الجامعة، لذا فأنه مكان مناسب لتدريب الطلبة في قسم الآثار.

واستناداً إلى جداول الملوك هذه فقد حكم فترة ما قبل الطوفان ثمانية ملوك، وبعد الطوفان كانت أول سلالتين عندما هبطت الملكية من السماء مرة ثانية، هما سلالة كيش في شمال بلاد بابل والوركاء في الجنوب. وتوضح الأدلة الأثرية هذا التغير المزعوم من أريدو و أقدم مدينة إلى الوركاء كأحد مراكز الحضارة الأساسية في الجنوب، إذ أن أريدو كانت قد هجرت فعلاً قبل عصور فجر السلالات بفترةٍ طويلة. ولعل ذلك كان بسبب زيادة ملوحة الأرض نتيجة لفساد نظـام الـري .

وينعكس هذا التغير من أريدو إلى الوركاء كمركز للحضارة في الجنوب في أسطورة سومرية خاصة بزيارة الإلهة (إن- أنّا= إنانّا) إلى أبيها الإله(أنكي). فاستناداً إلى هذه الأسطورة ذهبت هذه الإلهة إلى مقر أبيها (الأبسو =Apsu) في مدينة أريدو، فأقام لها والدها وليمة ترحيب مناسبة، وبعد أن شربا نبيذه الخاص بحرية كبيرة وعلى الأسلوب السومري، وبعد أن إنتشى أصبح مملوءاً بالكرم، فأنعم على أبنته(إنانا) بأكثر من مئة هدية تضم جميع المقومات الرئيسة للحضارة السومرية، وتشتمل على الملكية والعدالة والحقيقة والزور والبغاء المقدس والموسيقى والحكمة والمعرفة وعددٍ من الحرف. وقد وضعتهن (إينانا) في قارب وأبحرت، وتمكنت من إيصال الهدايا إلى مدينتها الوركاء بسلام، رغم محاولة (أنكي) إستعادة هذه الهدايا بعد أن أفاق من ثمله، وندم على فعلته.

بشكلٍ عام هذه المصادر الكتابية التي عرضناها باعتبارها مصادرنا في دراسة هذه الحقبة الحضارية، يكون مدى الإستفادة منها متفاوت، ويتوقف على مكانة الأشخاص الذين صاغوها وزمن صياغتها ومكانها. كما أنه من الضروري التحقق من النزاعات السياسية والدينية الكامنة ورائها، والأخذ بعين الإعتبار وجود رغبة طبيعية في الوصف الذاتي وفي التأثير الدعائي.

عموماً فإنها جميعاً تعطينا صور أحادية الجانب، وإن احتوى بعضها على نواة الحقيقة، وليس تفاصيلها الكاملة. لذا فإن دور الباحث والمؤرخ هو تحليل وتفسير هذه المعلومات المجزأة والغامضة والمحيرة في بعض الأحيان من أجل إعادة بناء وتركيب أحداثٍ سياسية هامة وتطوراتٍ تاريخية، وفقاً لخبرته وثقافته وإمكانياته وموضوعيته ، واستعانته بالأدلة المادية التي تكمل المشهد العام.

الحياة الدينية في عصر السلالات المبكرة:

نستطيع القول أن أسس ديانة حضارة وادي الرافدين وشعائرها وعقائدها الرئيسة قد وضعت في هذا العصر واستمر التطور والتحوير إلى العصور التاريخية التالية. فالحكماء والمفكرون السومريون أصحاب هذه الحضارة طوروا على الصعيد العقلي والروحي علماً لاهوتياً كونياً أصبح العقيدة والدغماطيقيا (تفسير عقائد دين ما) الأساسيتين في جميع أنحاء الشرق الأدنى.

فإنطلاقاً من إحاطة البحر والماء للكون في جميع أقطاره، خلصوا إلى نتيجة هي أن البحر الأولي وجد منذ بدء الزمان، وكان نوعاً من العلة الأولى = المحرك الأول. من هذا البحر الأولي كانت ولادة الكون، مؤلفاً من قبة السماء متموضعة فوق سطح الأرض ومتحدة بها، وكان الغلاف الجوي بينهما يضطرب ويتسع. ومن هذا الهواء صيغت الأجسام المنيرة كالقمر والكواكب والنجوم. بعد انفصال السماء عن الأرض وخلق الأجرام السماوية التي تهبنا الضياء ظهرت الحياة الحيوانية والإنسانية إلى الوجود. وكانوا يرون أن الكون موكول أمره إلى مجمع مؤلف من طائفة من الكائنات الحية، لهم هيئة كهيئة الإنسان إلا أنهم يفوقونه ولا ينال منهم الموت. وهم يتحكمون بالعالم وفقاً لخطط رسمت بعناية، ونواميس قدرت حسب الأصول تعرف ب(me) وهذه الـ(مي) يمكن أن تفهم بأنها الخصائص الإلهية أو القوى الإلهية، التي تمكن من إحداث مجموعة من الفعاليات المركزية في الحياة البشرية المتمدنة، ولا سيما الدين. بعض تلك الخصائص مثل(عرش الملكية) أو (طبل المعبد) كانت في الحقيقة قد جُعل لها شكل محسوس بحيث يمكن أن تأخذ معنى شعار مادي للآلهة، وفي بلاد وادي الرافدين كانت الآلهة العظام تمتلك(مي) وتوزعها على الآلهة الأصغر وعلى البشر.

وقد كان أكبر الآلهة في هذا المجمع آلهة الخلق الأربعة الذين يتحكمون بالعناصر الأربعة الرئيسة التي يتألف منها الكون: السماء والأرض والهواء والبحر. وهذه الآلهة هي: آن، كي،أنليل

و أنكي. وكانت وسيلة الخلق عندهم تقوم على استخدام الكلمة الإلهية، كان كل ما على الإله الخالق أن يفعله هو أن يرسم الخطط ويتفوه بالكلمة وينطق بالاسم. وكانوا يؤمنون أن الإنسان خلق من طين ومن أجل غاية واحدة وهي خدمة الآلهة. ونشير إلى أن الآلهة الكبيرة كثيراً ما تحجبها الآلهة المحلية وخاصة آلهة المدن التي كانت قوتها تتمثل بإمتلاكها(الكلمة الخارقة=inim) وفي قدرتها في تحديد مصائر البشر. نقرأ في نص عن الكلمة الخارقة التي يمتلكها الإله سن إله القمر(أنت يا سن كلمة تمضي على الأرض، وتنمو النباتات والأعشاب).
يمكن ببساطة وصف الدين بأنه إستجابة البشر الإيجابية في الفكر والفعل للقوى الخارقة للطبيعة(القوى المروعة الموحية بالرهبة والسحر والتي لايمكن للبشر مقاومتها) وتكون هذه الإستجابة من خلال محاولة الإنسان للمسك بصفات القوى وترجمتها إلى شيء يمكن أن يتمسك به البشر(تجسيم الآلهة)، وبالضرورة فالدين الرافديني يؤمن بتعدد الآلهة مادامت الظواهر الخارقة تتجسد في جميع الظواهر الطبيعية.

ورغم ما كان للعبادة الخاصة والتقوى الشخصية من أهمية في العبادة السومرية، فقد كان لممارسة الطقوس وأداء الشعائر العامة دور أكبر في الديانة السومرية، إذ كان المعبد مركز الصلوات وكانت تقام فيه الطقوس وتقدم القرابين وكان له كهنة وكاهنات ومنشدون وعازفون وخدم. وكان المعبد مركزاً للحياة الاقتصادية و الإجتماعية والسياسية في دولة المدينة فضلاً عن دوره الديني الأساسي. وكان هذا المعبد بالأساس وهو بيت الإله، فالإله مثل الإنسان يحتاج إلى بيت هو المعبد، الذي هو من المعالم البارزة في المدينة، إذ كان يقام فوق مرتفع من الأرض ما يلبث حتى يصبح برجاً عالياً أو (زقورة) والتي تعد من أبرز المساهمات المعمارية للأقوام السومرية في مجال العمارة الدينية. وكان المعبد عادة يتألف من حجرة مركزية مستطيلة الشكل هي (الحرم) يحيط بضلعيها الكبيرين حجرات يستخدمها الكهنة. وكان في الحرم (محراب) ينصب فيها تمثال الإله ويجعلون أمامه منصة من القرميد لوضع القربان. وكانت تزين الجدران الخارجية للمعبد بالدعائم والفجوات(الدخلات والطلعات) وربما تم تزيين الداخل برسوم جدارية تمثل أشكال بشرية وحيوانية، أو بمجموعة متنوعة من الأشكال الهندسية المتكررة. وكان المعبد من أهم أبنية المدينة وأوسعها وأعلاها. وكانت المدينة كلها تعود ملكيتها إلى كبير الآلهة الذي خصت به يوم خلق وفقاً للاعتقاد السائدين بين القادة السومريين الدينيين. غير أن سدنة المعبد لم يكونوا يملكون، عملياً، إلا قطعة من الأرض يؤجرونها إلى فلاحين بطريقة المزارعة، أما ما تبقى من الأرض فيعود للملكية الخاصة التي كان يتولاها الأفراد المواطنين.

عموماً فأن أراضي المعبد كانت تقسم إلى ثلاثة أقسام، كان الغرض من إحداهما الذي يعرف بـ(حقول السيد) هو توفير حاجات الطقوس واقتصاد المعبد. أما البقية فتوزع فكانت توزع على شاغلي ممتلكات المعبد، إما على هيئة الإقطاعات مقابل خدمات تقدم إلى الإله(حقول الإدامة)

أو (حقول العمل) أي الأراضي المؤجرة مقابل نصيب من الحصاد. وكانت في هذه الفترة أجرة منخفضة، إذ تبلغ سبع أو ثمن الغلة. وكان هناك ثلاث شخصيات رئيسية تدير المعبد وهم : الناظر (أگريگ= Agrig) والمفتش(نوباندا= Nubanda) و الكاهن(سانگا= Sanga). وكان هؤلاء مسؤولين عن توزيع الواجبات على ملاك المعبد وعن توزيع الجرايات والآلات والإشراف على القطعان وأملاك المعبد.

المحاضرة الثامنة

الحياة الدينية في عصر السلالات المبكرة:

نستطيع القول أن أسس ديانة حضارة وادي الرافدين وشعائرها وعقائدها الرئيسة قد وضعت في هذا العصر واستمر التطور والتحوير إلى العصور التاريخية التالية. فالحكماء والمفكرون السومريون أصحاب هذه الحضارة طوروا على الصعيد العقلي والروحي علماً لاهوتياً كونياً أصبح العقيدة والدغماطيقيا (تفسير عقائد دين ما) الأساسيتين في جميع أنحاء الشرق الأدنى.

فإنطلاقاً من إحاطة البحر والماء للكون في جميع أقطاره، خلصوا إلى نتيجة هي أن البحر الأولي وجد منذ بدء الزمان، وكان نوعاً من العلة الأولى = المحرك الأول. من هذا البحر الأولي كانت ولادة الكون، مؤلفاً من قبة السماء متموضعة فوق سطح الأرض ومتحدة بها، وكان الغلاف الجوي بينهما يضطرب ويتسع. ومن هذا الهواء صيغت الأجسام المنيرة كالقمر والكواكب والنجوم. بعد انفصال السماء عن الأرض وخلق الأجرام السماوية التي تهبنا الضياء ظهرت الحياة الحيوانية والإنسانية إلى الوجود. وكانوا يرون أن الكون موكول أمره إلى مجمع مؤلف من طائفة من الكائنات الحية، لهم هيئة كهيئة الإنسان إلا أنهم يفوقونه ولا ينال منهم الموت. وهم يتحكمون بالعالم وفقاً لخطط رسمت بعناية، ونواميس قدرت حسب الأصول تعرف ب(me) وهذه الـ(مي) يمكن أن تفهم بأنها الخصائص الإلهية أو القوى الإلهية، التي تمكن من إحداث مجموعة من الفعاليات المركزية في الحياة البشرية المتمدنة، ولا سيما الدين. بعض تلك الخصائص مثل(عرش الملكية) أو (طبل المعبد) كانت في الحقيقة قد جُعل لها شكل محسوس بحيث يمكن أن تأخذ معنى شعار مادي للآلهة، وفي بلاد وادي الرافدين كانت الآلهة العظام تمتلك(مي) وتوزعها على الآلهة الأصغر وعلى البشر.

وقد كان أكبر الآلهة في هذا المجمع آلهة الخلق الأربعة الذين يتحكمون بالعناصر الأربعة الرئيسة التي يتألف منها الكون: السماء والأرض والهواء والبحر. وهذه الآلهة هي: آن، كي،أنليل و أنكي. وكانت وسيلة الخلق عندهم تقوم على استخدام الكلمة الإلهية، كان كل ما على الإله الخالق أن يفعله هو أن يرسم الخطط ويتفوه بالكلمة وينطق بالاسم. وكانوا يؤمنون أن الإنسان خلق من طين ومن أجل غاية واحدة وهي خدمة الآلهة. ونشير إلى أن الآلهة الكبيرة كثيراً ما

تحجبها الآلهة المحلية وخاصة آلهة المدن التي كانت قوتها تتمثل بإمتلاكها(الكلمة الخارقة=inim) وفي قدرتها في تحديد مصائر البشر. نقرأ في نص عن الكلمة الخارقة التي يمتلكها الإله سن إله القمر(أنت يا سن كلمة تمضي على الأرض، وتنمو النباتات والأعشاب).
يمكن ببساطة وصف الدين بأنه إستجابة البشر الإيجابية في الفكر والفعل للقوى الخارقة للطبيعة(القوى المروعة الموحية بالرهبة والسحر والتي لايمكن للبشر مقاومتها) وتكون هذه الإستجابة من خلال محاولة الإنسان للمسك بصفات القوى وترجمتها إلى شيء يمكن أن يتمسك به البشر(تجسيم الآلهة)، وبالضرورة فالدين الرافديني يؤمن بتعدد الآلهة مادامت الظواهر الخارقة تتجسد في جميع الظواهر الطبيعية.

ورغم ما كان للعبادة الخاصة والتقوى الشخصية من أهمية في العبادة السومرية، فقد كان لممارسة الطقوس وأداء الشعائر العامة دور أكبر في الديانة السومرية،إذ كان المعبد مركز الصلوات وكانت تقام فيه الطقوس وتقدم القرابين وكان له كهنة وكاهنات ومنشدون وعازفون وخدم. وكان المعبد مركزاً للحياة الاقتصادية و الإجتماعية والسياسية في دولة المدينة فضلاً عن دوره الديني الأساسي. وكان هذا المعبد بالأساس وهو بيت الإله، فالإله مثل الإنسان يحتاج إلى بيت هو المعبد، الذي هو من المعالم البارزة في المدينة، إذ كان يقام فوق مرتفع من الأرض ما يلبث حتى يصبح برجاً عالياً أو (زقورة) والتي تعد من أبرز المساهمات المعمارية للأقوام السومرية في مجال العمارة الدينية. وكان المعبد عادة يتألف من حجرة مركزية مستطيلة الشكل هي (الحرم) يحيط بضلعيها الكبيرين حجرات يستخدمها الكهنة. وكان في الحرم (محراب) ينصب فيها تمثال الإله ويجعلون أمامه منصة من القرميد لوضع القربان. وكانت تزين الجدران الخارجية للمعبد بالدعائم والفجوات(الدخلات والطلعات) وربما تم تزيين الداخل برسوم جدارية تمثل أشكال بشرية وحيوانية، أو بمجموعة متنوعة من الأشكال الهندسية المتكررة. وكان المعبد من أهم أبنية المدينة وأوسعها وأعلاها. وكانت المدينة كلها تعود ملكيتها إلى كبير الآلهة الذي خصت به يوم خلق وفقاً للاعتقاد السائدين بين القادة السومريين الدينيين. غير أن سدنة المعبد لم يكونوا يملكون، عملياً، إلا قطعة من الأرض يؤجرونها إلى فلاحين بطريقة المزارعة، أما ما تبقى من الأرض فيعود للملكية الخاصة التي كان يتولاها الأفراد المواطنين.

عموماً فأن أراضي المعبد كانت تقسم إلى ثلاثة أقسام، كان الغرض من إحداهما الذي يعرف بـ(حقول السيد) هو توفير حاجات الطقوس واقتصاد المعبد. أما البقية فتوزع فكانت توزع على شاغلي ممتلكات المعبد، إما على هيئة الإقطاعات مقابل خدمات تقدم إلى الإله(حقول الإدامة) أو (حقول العمل) أي الأراضي المؤجرة مقابل نصيب من الحصاد. وكانت في هذه الفترة أجرة منخفضة، إذ تبلغ سبع أو ثمن الغلة. وكان هناك ثلاث شخصيات رئيسية تدير المعبد وهم : الناظر (أگريگ= Agrig) والمفتش(نوباندا= Nubanda) و الكاهن(سانگا= Sanga).

وكان هؤلاء مسؤولين عن توزيع الواجبات على ملاك المعبد وعن توزيع الجرايات والآلات والإشراف على القطعان وأملاك المعبد.

الحياة الاقتصادية في عصر السلالات المبكرة:

الحضارة السومرية حضارة مدنية وإن كانت قد قامت ونهضت على قاعدة زراعية أكثر منها صناعية، إذ إن الإنتاجية الزراعية التي اعتمد سكان بلاد وادي الرافدين عليها في معيشتهم يجب أن تعد أساس حضارة وادي الرافدين. إن الظروف المناخية وطبيعة التركيبة الطبوغرافية في السهل الرسوبي وبشكل خاص القسم الجنوبي منه، فرض على السكان ضرورة تنظيم أعمال الري وشق القنوات، هذه الأعمال أثرت في صياغة التكوين الإجتماعي، إذ لا يمكن إنجاز هذه الأعمال بكفاءة إلا من خلال العمل الجماعي، وكان من نتيجة هذا التعاون أن تفوقت الوحدة الكبيرة (المجتمع) على العائلة والعشيرة، لذا اعتمد التكوين الاجتماعي على ذلك وليس على الأسرة والقبيلة. فالأرض في جنوب بلاد وادي الرافدين لا قيمة لها بدون استخدام مياه الري بشكل منتظم، إن من نتائج استخدام وسائل الري المتطور، انتقال المناطق الزراعية من إقليم الدلتا إلى سهول النهر.

كانت المدينة وأراضيها بجميع سكانها تمثل مقاطعة إله المدينة، وكان الحاكم أو الملك–الكاهن(الذي يمثل گلگامش شكله الأول) وكيله. وكان واجب المواطن في دويلة المدينة السومرية هو خدمة مقاطعة المعبد أو الحاكم، إذ إن كلاهما يعني شيء واحد من وجهة نظر القدماء، فالحاكم هو الإنسان الذي كان وكيلا ًللإله. ومقابل ذلك، أقطع كل مواطن قطعة من مقاطعة من الإله، أي من أراضي المعبد. وتختلف مساحة هذه القطعة استناداً لمكانة الشخص الاجتماعية. وكان صاحب هذه الأرض التي تزيد عن قدرته الزراعية، يستعين بالأحرار من المواطنين الفقراء، ومن ثم بالعبيد من الرقيق.

عموماً في هذه الفترة كان الجزء الأعظم من الأراضي مملوكاً من قبل المعابد، وربما كانت الأرض في فترات سابقة ملكاً خاصاً للمعبد، حيث يلمح إلى ذلك أحد حكام لگش وهو (أور كاجينا ٢٣٥١–٢٣٤٢ ق.م) في إصلاحاته، بأن ملكية الأرض من قبل الملك والملكة كانت غير عادلة وضد رغبة الآلهة وكان لا بد من معالجتها.

ويرى بعض الباحثين أن فكرة نشؤ ونمو ملكية الأرض الخاصة تحمل تأثيراً سامياً، إذ أنها كانت نادرة في بلاد سومر قبل قيام السلالات السامية ومنها السلالة الأكدية.

كانت المدينة تضم أكثر من مقاطعة معبد واحد، فمدينة لگش مثلاً كانت تتألف من أربعة مقاطعات، وكل مقاطعة متمركزة حول معبد أو مجموعة معابد. وكانت المعابد تستلم كميات

كبيرة من الحبوب أكثر من الحاجة، فتقوم بتصدير الفائض، وكانت الحبوب تحفظ في صوامع، حيث عثر على الكثير منها في المواقع الأثرية. عموماً فأنه نتيجة للنقص في المواد الأساسية في بلاد وادي الرافدين، فقد جلبت من الخارج منذ القدم، وخاصة الأخشاب والأحجار والمعادن، ففتحت الطرق التجارية الرئيسة منذ العهود السومرية، ففي ملحمة (أنمركار وحاكم أرّاتا) من حوالي ٢٧٠٠ ق.م. كانت القوافل تذهب إلى بلاد إيران وتعود بالأحجار الثمينة وغيرها.

النظام السياسي في عصر السلالات المبكرة:

نفترض أن في الفترات السابقة لظهور الكتابة، أي قبل ٣٢٠٠ ق.م. وجود من يدير شؤون الناس والجماعات في مدن بلاد وادي الرافدين وبخاصة مدن الجنوب.ربما كان الكهنة ورجال الدين هم من تولى هذا الأمر من خلال المعابد المنتشرة في مختلف مناطق البلاد. ويمكننا استنتاج بعض الأمور الخاصة بالتركيب السياسي الداخلي في هذه الفترة التاريخية من ألقاب حكام الدويلات. فهناك ثلاثة ألقاب، جميعها باللغة السومرية، تفيدنا في هذا المجال وهي لقب (لوگال =Lugal) ومعناه (الرجل الكبير) باللغة السومرية ويقابله باللغة الأكدية (شُرم = sharrum) (الملك)، ولقب(أين =en) بمعنى(السيد)، ربما يكون لقباً كهنوتياً، واللقب الثالث هو (أنسي= ensi)، الذي كان أصلاً مسؤولاً عن الأراضي المحروثة، أي كان وكيلاً، وإن أصبح حاكم مدينة في عصور لاحقة. وفي فترة ما أثناء حكم ملوك لگش قبل سرجون لم يكن حملة هذا اللقب الأوائل كما يبدو حكاماً مستقلين، ولا يظهر أي منهم في قائمة الملوك. ولقب الملك سرجون الأكدي، الحكام الأكديين الذين عينهم ليحكموا مدن سومر(أنسي)، وإن أصبح المصطلح يطلق في وقت لاحق بلا تمييز على الحاكم المستقل، أو حاكم المدينة، وبخاصة عندما لم يكن أي لقب آخر يُقرن بالمدينة. فاللقب يترجم عادة إلى(حاكم المدينة) أو (الحاكم) والذي يتضمن لقب(أين=en) والمصطلح الأخير ورغم ترجمته إلى (السيد) إلا أننا لا نعرف (معنى تركيبه الدقيق). واللقب (أنسي) يدل على مرتبة أقل من لقب (لوگال) أو(أين). فقد كان الأمير المستقل الذي يحكم مدينة وما يجاورها من أراضي محيطة يطلق على نفسه لقب (أنسي) وكذلك كان يفعل الحاكم التابع لملك أقوى منه. ويؤيد هذا الرأي أن الأنسي يشير على حكم في حدودٍ محدودة كما يظهر في نص (إي–اناتم) حاكم مدينة (لگش) الذي يقول أنه سيطر [إضافة إلى إمارة (ما يشمله حكم الأنسي) لگش، ملوكية كيش]. كما أن حكام مدينة (أُوما) لقبوا أنفسهم بلقب (لوگال) في كتاباتهم الخاصة، في حين لقبهم أعدائهم في مدينة لگش بلقب (أنسي) . إن لقب (لوگال) هو اللقب المستخدم دائماً في جداول الملوك، وإن عبارة (نام – لوگال = Nam– Lugal) ترد بمعنى الملوكية باعتبارها شكلاً من أشكال الحكومة. وقد ظهر لقب (لوگال) لأول مرة مع اسم حاكم مدينة كيش وأور (امبارجيسي ومس كلام دكَ). أما العلامة المركبة

التي تدل على ذلك فقد وجدت منذ عصر الوركاء–جمدة نصر . وإن لقب (أين) كلقب ملكي، كان مقصوراً على مدينة الوركاء، خلافاً للقب (أنسي) و(لوگال) . فقد عرف (أينمركار و لوجابندا وكلكامش) على أنهم حكام(أين) كُلاب=Kulab (وهي قسم من الوركاء) في آداب الملاحم والأساطير. ولُقب مؤسس السلالة الأولى في الوركاء (مسكيانجاشير) بلقب (أين=حاكم) إي –أنّا، وهو معبد إله مدينة الوركاء في جداول الملوك السومريين. كما يذكر الملك(لوگال– كنجينيشدود) في حدود القرن الرابع والعشرين ق.م أنه مارس الإمارة (Nam–en) على الوركاء، والملوكية (Nam– Lugal) على مدينة أور، وهي إشارة أخرى إلى ارتباط لقب (أين) بمدينة الوركاء وحدها. ونجد مرة واحدة فقط أن حاكم الوركاء(أينشاكوشانا) في حوالي نهاية القرن الخامس والعشرين ق.م يستخدم عبارة (حاكم = أين) بلاد سومر.

عموماً لقد أصبح (لوگال) أخيراً هو أقوى شخص في دويلة المدينة، وبدأ يعيش في مكان مستقل هو القصر(hai–kal باللغة السومرية القديمة و e–gal = أيگال، والذي يعني حرفياً البيت الكبير) وأقدم الأدلة لدينا على وجود القصور الملكية جاءت من بقايا البنايات التي كشف عنها في تنقيبات أريدو من عصر السلالات المبكرة الثاني والثالث و كيش من عصر السلالات المبكرة الثاني. وقد تكون هذه قصوراً حيث أنها لا تشابه في تخطيطها تخطيط المعابد وأنها واسعة ولا تصلح لأي شيء آخر. ومع ذلك، فأن (أين) الوركاء كان يعيش، استناداً إلى ما جاء في الملاحم، في جزء من المعبد يدعى (گيبار= gipar) وإن هذا الاسم هو اسم جزء من المعبد خاص بالكاهنة العليا في المدن الأخرى .

إن من أحسن الدراسات عن الحياة السياسة و الاجتماعية، هي دراسة الباحث جاكوبسون، والذي اعتمد في وضعها على قراءته للملاحم والأساطير، فرسم صورة واضحة عن هذا الجانب في عصر السلالات المبكرة . فاستناداً إلى رأيه كانت السلطة العليا في أقدم مجتمع سومري بيد مجلس يضم جميع المواطنين – ولعله ضم النساء والرجال– يجتمع ليقرر ما يجب عمله في الحالات الطارئة والتي تنذر بالخطر. وكان لكل مواطن حق الكلام. غير إن رأي بعضهم، لاسيما الرجال المسنين، كان أكثر وزناً من رأي الآخرين. وكان النقاش يستمر حتى يتم الوصول إلى قرار نهائي وبالإجماع، حيث لم يكن هناك أسلوب أخذ رأي الأغلبية. وكان القرار النهائي يعلن عادة من قبل مجموعة صغيرة تدعى (مشرعي القانون).

وعليه فأن أول (برلمان) سياسي معروف في التاريخ الإنساني المدون، كان قد إنعقد في بلاد وادي الرافدين في جلسة خطيرة في الألف الثالث ق.م. وكان المجلس يتألف من هيئتين أو مجموعتين هما مجلس(الأعيان) ومجلس (العموم).

ويرى (جاكوبسون) أن هذا الأسلوب – أي وجود المجلس– والذي أطلق عليه (الديمقراطية البدائية) قد انتشر من دويلة المدينة إلى بلاد سومر، إذ اعتبر نظاماً سياسياً قائماً.

يمكن القول أن نظام الحكم في عصر السلالات المبكرة، يوضح خلفية طويلة وتطوراً سياسياً غير معروف لنا الآن، وقد يكون الكهنة في بادئ الأمر هم الحكام الأوائل، خاصة وأن المعتقدات الدينية تؤكد بأن البشر قد خلقوا لخدمة الآلهة وتوفير ما تحتاجه. حيث جاء في أسطورة الخلق البابلية أن الإله مردوخ طلب بأن يؤخذ قرار ضد من حرض (تيامة) ضد الآلهة. وأجابت الآلهة واتهمت (كنكو). لذلك ربط(مردوخ) الإله المتهم وقاده إلى حضرة أبيه (آيا =أنكي) لقد فرضوا عليه عقوبة ذنبه وأراقوا دمه وخلقوا من دمه الإنسان، وفرض (أيا) الخدمة على الإنسان وأراح الآلهة].

عموماً فأن إله (كل مدينة) هو ملكها الحقيقي، وقد يكون الكهنة في البداية هم الملوك. وقد شهدت الفترة السومرية الأولى صراعاً بين الملك والكهنة، والأمثلة المتوفرة عن كهنة كان لهم نفوذٍ واسعُ مثل (دودو) كاهن لگش في زمن الملك (أنتمينا). وكان الأخير في البداية كاهناً أعلى لإله المدينة. أضاف (أيناتارزي) حاكم لگش جمع صلاحيات الكاهن الأعلى لوظائفه وقسم رئاسة مختلف معابد المدينة بين أفراد أُسرته.

بعض الجوانب السياسية في عصر السلالات المبكرة (صراع المدن)

بما أن معلوماتنا عن العلاقات السياسية مستمدة بالدرجة الأساس من النصوص الكتابية، لذلك فأنها محددة بتاريخ أقدم المدونات، أي من حوالي ٢٦٠٠ ق.م. إذ ظهرت الكتابة على نطاق واسع. ومن المعروف أن عصر السلالات المبكرة قد تميز بالصراع بين دويلات المدن، وأن هذا الصراع قد انتهى في بعض الأحيان بتدمير مدن الأعداء والسيطرة عليها.ولم يقتصر الصراع على مدن بلاد وادي الرافدين بل شمل كذلك دويلات المدن الأخرى مثل بلاد عيلام، لعدم وجود حواجز طبيعية وسياسية.

وفي هذا السياق فأن هناك عدة محاولات قد جرت في هذا العصر لتوحيد دويلات المدن في كيان سياسي واحد، وقبل أن نعرض هذه المحاولات نود أن نشير إلى أن دويلات المدن السومرية هذه كانت تتميز بشخصيتها الفردية ومقاومتها الشديدة أي شكل من السيطرة السياسية المركزية. وهذا أمر يثير الدهشة بسبب عدم وجود الحدود الطبيعية بين دويلات المدن المختلفة. وفي الواقع فأن أريدو وأور و الوركاء ولارسا، وهي أربع من المدن الأقدم والأكثر أهمية، تقع الواحدة في مدى البصر من الأخرى. وبقى هذا الميل نحو الانفصالية عاملاً مهماً في تاريخ بلاد مابين النهرين، رغم جهود قديرة كثيرة للتغلب عليها، وبقيت المدينة زمناً طويلاً الشكل الأساسي للوحدة السياسية. ففي أقدم إشارة لأول حاكم قدر لأخباره أن تجد سبيلها إلى التدوين، وإن كان ذلك على أوجز ما يكون، إذ جاء فيها ما يشير إلى هذا المعنى، فنقرأ في جداول الملوك السومرية، عن أخبار الملك (أيتانا في حوالي ٢٧٠٠ ق.م.) وهو أحد ملوك مدينة (كيش) الذي

يوصف بأنه(الراعي الذي صعد إلى السماء، وثبت أركان البلاد) مما يوحي بأن حكمه لم يقتصر على بلاد سومر وحسب، وإنما امتد إلى البلاد المحيطة بها أيضاً، إنه باختصار كان يفكر في بناء إمبراطورية. ثم أعقبه بعد مدة وجيزة ربما ملك آخر عرف باسم (مسكياجشر) الذي أسس أسرة حاكمة، واتخذ من مدينة الوركاء عاصمة له، وبسط سيطرته على المنطقة من البحر المتوسط غرباً حتى جبال زاگروس شرقاً. وكان خليفته ابنه (إنمركار) الذي قاد حملة عسكرية على دويلة (أراتا) من أجل الحصول على معادنها وحجارتها. فطبقاً لما ورد في أسطورة سومرية معروفة بـ(إنمركار و سيد أراتا) فإن هذا الملك السومري شعر بقوته وقدرته المتنامية، فطلب من إلهة مدينته الوركاء(الإلهة إنانا) أن يجعل من مدينة (أراتا) تابعة له، ويفرض عليها الجزية من الذهب والفضة واللازورد. وعليه يمكن أن نعتبر هذه أقدم إشارة تاريخية إلى الاتصالات التجارية بين كلٍ من بلاد وادي الرافدين والأقاليم الشرقية. فهذه الإشارة شديدة الأهمية لكونها تلقي الضوء على النشاطات التجارية الخارجية والاتصالات البعيدة لضمان الحصول على المواد الخام التي كانت تفتقر إليها بلاد وادي الرافدين كما أشرنا في البداية. خصوصاً إن هذه المدينة تشتهر بمعادنها وحجارتها، وشهرة مصنوعاتها المعدنية والحجرية، وقد بلغت شهرتها إلى حد أن كلمة (أراتا) أصبحت تعني باللغة السومرية (الشهير) أو (العالي الشأن).

ويبدو أن ملكها قد رفضها تهديدات (إنمركار) وأدعى أنه محمي من قبل الآلهة (إنانا) وأنها سلمته مفاتيح الحكم[يبدو من سياق هذه القصة أن أهل هذه المدينة كانوا ينطقون السومرية، وكذلك أسمائهم وأسماء آلهتهم كلها سومرية، مما يدل على أنها كانت في نفس الإطار الحضاري) وقد حذر ملكها، خصمه (إنمركار) من اللجوء إلى استخدام السلاح، وطالب بإجراء مبارزة بين بطلين من أهل المدينتين(يبدو أن المنازلة بين الأبطال كانت عرفاً شائعاً في ذلك الزمان، كما توضح ذلك المشاهد المصورة على الأختام، وكذلك الصراع بين گلگامش و أنكيدو في الملحمة الشهيرة) وقد استمرت المراسلات بين المدينتين، وكان من رسل الملك(إنمركار) البطل المحارب(لوگال- باندا) الذي سوف يستلم الحكم فيما بعد. ويبدو من سياق أحداث القصة أن هناك صلحاً قد عقد بين المدينتين، وأن هناك قد قدمت إلى مدينة الوركاء. وبعد أن تولى (لوگال- باندا) مقاليد الحكم في مدينة الوركاء، اصطدم في أواخر حكمه بتهديد حاكم مدينة (كيش) الشمالية، حيث كان آخرملوك هذه المدينة وهو من أسرة الملك (أيتانا)السابق الذكر، وهو (ميباراجيسي حوالي ٢٦٣٠-٢٦٠٠ ق.م) وتذكر جداول الملوك بأنه كان الحاكم الثاني والعشرين من حكام سلالة كيش الأولى، وهي أول سلالة بعد الطوفان، والذي كان على ما يبدو محارباً قوياً ورجلاً صنديداً، إذ يوصف بأن (هازم عيلام) البلاد التي تقع إلى الشرق من بلاد وادي الرافدين. ووصف بأنه أول من بنى معبداً للإله (أنليل) كبير الآلهة في بلاد سومر، في مدينة (نفر) مما يدل على تقواه وورعه. وخلفه في الحكم ابنه(اگا أو اكا =

Aka) الذي حاول أن يسير على خطا أبيه لكنه لم يفلح، ربما بسبب ظهور سلالة في مدينة (أور) حاولت الإستيلاء على جميع بلاد سومر. وسوف نشير إلى صراع هذا الملك مع گلگامش ملك الوركاء الشهير. من بين سلالة (أور) في هذه الفترة الملك (ميسانيبادا) الذي كان أول ملك يجلس على عرش أور، أي أنه مؤسس سلالة أور الأولى. كان هذا الملك وأحفاده من هذه السلالة ملوك أقوياء وسيطروا على مصادر هامة للمواد الخام خارج البلاد، وتشهد على ذلك المقبرة الملكية في أور، والتي يرجح أنها تعود إلى تلك الفترة التي عمرت أضرحتها بكامل الاستيعاب بالأسلحة والآلات والأواني والحلي المصنوع من الذهب والفضة والنحاس والأحجار شبه الكريمة. لكن هذه السلالة لم تدم طويلاً، إذ أنه بعد وفاة ملكها الأول وحفيده(أنيبدا) دب فيها الضعف، وظهرت الوركاء في الواجهة مرة ثانية، هذه المرة بقيادة ملكها العظيم گلگامش، المغامر الشجاع، ولكنه أيضاً الشخصية المأساوية التي ترمز إلى سعي الإنسان الدؤوب، ولكن العاثر نحو الخلود. وگلگامش هو الملك الخامس من ملوك سلالة الوركاء الأولى(حوالي ٢٦٠٠ق.م). يرد في ملحمته الشهيرة صراعه مع حاكم (كيش) (اگا)، إذ يبدو من خلال ما جاء في القصة أن گلگامش كان تابعاً لحاكم كيش، الذي بعث إليه بإنذار بعد أن شعر بخطره وتنامي قوته ، ومحاولته السيطرة على بلاد سومر. وقد عرض گلگامش الأمر على المجلس بهيئتيه (المسنين والقادرين على القتال] كما أشرنا. وفي الختام أجاب گلگامش:[لتوضع الآن عدة (السلام) جانباً، وليحل محلها عنفوان المعركة) وقد أعقب هذه المفاوضات، معركة عنيفة لم تعرف نهايتها. وكان(اگا) آخر حكام سلالة كيش الأولى، وقد تعاظم في زمنه شأن مدينة الوركاء وتوسع نفوذها.

ومن المدن المهمة في هذا العصر(لگش) المعروفة حالياً بـ(تل الهبة) وعرفت هذه المدينة في العصر السومري (أوروكو) وتقع في ناحية الدواية/ قضاء الشطرة في محافظة الناصرية، حوالي ٢٥ كم شرق الشطرة ، نقب فيها كولدفاي عام ١٨٨٧م، بالإضافة إلى تل سرغل. واستمرت التنقيات في هذه التلال وهي الأكبر في جنوب بلاد وادي الرافدين. وتقع هذه المدينة في وسط إقليم خصب جداً تتخلله قنوات الري التي تأخذ مياهها من شط الحي، وهو قنال يربط بين نهري دجلة والفرات. وقد اشتهرت هذه المدينة بقيامها بدور عسكري وسياسي بارز، طوال قرن من الزمان، من حوالي ٢٥٠٠ ق.م.أي في عصر السلالات المبكرة الثالث. وكانت عاصمة لسلالة قوية ونشيطة من حكام وأمراء، هي سلالة (أور- نانشة ٢٤٩٤-٢٤٦٥) ومن حكامها المشهورين الملك (أي –أنا- تم =E-ana-tum) ويكتب كاملاً (أياناتم ٢٤٥٤-٢٤٢٥) الملك الفاتح الذي استطاع خلال فترة قصيرة مد حكمه وسلطانه إلى جميع بلاد سومر تقريباً. وكان أخيه (أيناناتم الأول ٢٤٢٤-٢٤٠٥) من المشاهير من ملوك هذه السلالة، وبعده ابنه(أنتمينا ٢٤٠٥-٢٣٧٥). ولم يأفل دور دويلة لگش إلا في عهد (أور كاجينا أو يكتب أور- إنمگينا

٢٣٥١-٢٤٤٢) تاسع حاكم من هذه السلالة، والذي هزم من قبل(لوگال زاكيزي ٢٣٤٠-٢٣١٦) حاكم مدينة(أُوما) المدينة المجاورة التي دخلت في صراع مرير مع مدينة (لگش). من هذه السلالة لدينا مجموعة من السجلات المعاصرة للأحداث، سجلها مؤلفون ربما كان يوكل إليهم سجلات المعابد والقصور، لذلك كان لديهم أخبار أصيلة عن الحوادث التي دونوها. ومن أبرزها وثيقة من عهد الملك(أنتمينا) تصف إعادة حفر(خندق) الحدود بين أُوما و لگش، الذي كان قد دمر أثناء الصراع بين المدينتين. وهذه الوثيقة المهمة يمكن أن تدرج تحت مسمى الحوليات الملكية (Annals)، أي ذكر الأحداث عاماً بعد عام عند تدوين أخبار الملوك، حيث استعرض في نصه هذا المعارك التي دارت بين دولتي لگش و أُوما، إذ استعرض لنا أحدث سبقت عهده بما لا يقل عن أربعة أجيال. وقد احتوى النص على مقدمة شملت تاريخ الصراع والحوادث التي وقعت بين المدينتين منذ الأزمان التي استطاعت أن تصل إلى حوادثها السجلات المتيسرة له، منذ عهد (ميسليم حوالي ٢٥٥٠) حاكم كيش.

أما المدينة الأخرى وهي أُوما فأنها تقع إلى الشمال من لگش على الجانب الثاني من قناة (لُما-گيرنُم). وبما أن جريان شط الحي من الشمال إلى الجنوب، فأن هذه المدينة تحكمت في السيطرة على مجرى الماء، وبالتالي تمكنت من التدخل في تجهيز مدينة لگش بالمياه، وربما يكون هذا السبب الرئيس لقيام الصراع بين المدينتين في عدة مناسبات. وقد زودتنا النصوص التي سجلت ظروف تلك الأحداث بأول المدونات التاريخية المهمة. وقبل عرض تفاصيل هذه الوثيقة، نود أن نشير إلى نص الملك(أياناتم) وهو عم الملك (أنتمينا)، وقد دون نص هذا الملك على منحوتة حجرية عرفت باسم (مسلة النسور أو العقبان) والتي خلد فيها انتصاره على مدينة (أوما) وسميت بهذا الاسم لوجود صور لطيور جارحة من نسور وعقبان، تنهش جثث القتلى من الأعداء الذين تركوا في أرض المعركة، ويظهر في هذه المسلة الملك وهو راكب عربته الخاصة، ويظهر منتشياً بالنصر على أعدائه. وتحمل الكتابة قسم ملك (أوما) من أجل التزامه بالمعاهدة. وعلى الرغم من ادعاء هذا الملك أنه حقق انتصاراً باهراً على ملك (أوما) إلا أنه لم يمض جيل واحد حتى استعرت الحرب من جديد بين المدينتين.إذ رفض (أور- لوما) ملك مدينة (أوما) هذه المعاهدة المشينة، وقام بتدمير وتحطيم مسلة (ميسيلم) ملك كيش، الوسيط ومنظم المعاهدة، وحطم الأبنية المقامة على الخندق الواقع بين المدينتين، وجفف المياه من أجل العبور والدخول في أراضي لگش. إن الإشارة إلى (ميسيلم) ملك كيش، ربما تدل على أنه كان سيداً على بلاد سومر على الأقل من الناحية الاسمية، ويرى الباحث هاري ساكز(أنه لم يكن ملكاً على كيش في فترة محاولتها السيطرة على بلاد سومر بحسب التسلسل التاريخي، ولعدم وجود اسمه في الجداول الملكية السومرية، فأنه من المحتمل كان ملكاً لدويلة تمكنت من السيطرة على بلاد أكد، وبالتالي منحها " أنليل" إله نفر اللقب المقدس " ملك كيش").وبالعودة إلى نص

الملك (أنتمينا) الذي ينتقل إلى مرحلة الصراع بين المدينتين في فترة الحدث، حيث يرد أن(أور– لوما) إبن الملك (أيناكالي)، والأخير كان قد هزم من قبل(أياناتم)، يرد أن الإبن قد تنكر للمعاهدة وحطم المسلات وأزال الأنصاب من الحدود وحطمها ورماها في النار بحسب تعبير نص (أنتمينا) وخرب المزارات التي أقيمت في (Gu–Edina) وهي كلمة سومرية ربما تعني (الأرض المحايدة)، وعبر الحدود وغزا لگش، إلا أن جيوشها تصدت له بقيادة (أنتمينا) لأن أبيه الملك كان طاعناً في السن. وفجأة يختفي (أور– لوما) من مسرح الأحداث، وربما يكون قد قضي عليه من قبل (أنتمينا) في هذه الحرب. فظهر أحد الأشخاص وهو كاهن يدعى (إل=iL) والذي ربما يكون رئيس معبد في مدينة مجاورة هي (زبلاتوم) ربما هي مدينة " إبزيخ" وفقاً لأحد الآجرات المختومة بإسم المدينة من زمن حمورابي] وربما يكون هذا الشخص وفقاً لرواية أخرى إبن أخ (أنتمينا) وقد نصبه على مدينة(أوما). أو أنه شخص من مدينة أخرى، كان يراقب الأحداث وأستغل فرصة الحرب والصراع ونصب نفسه على المدينة. وقد أبرم معه (أنتمينا) معاهدة أعاد بموجبها حقوق لگش وثبت الحدود القديمة بين المدينتين المتنازعتين. كان (أنتمينا) آخر ملك قوي من سلالة لگش، أعقبه ثلاثة حكام لم يستمروا طويلاً. هما (أيناناتم الثاني٢٣٧٤–٢٣٦٥ ق.م) و (إنتارزي٢٣٦٤–٢٣٥٩) و (لوگالندا ٢٣٥٨–٢٣٥٢) والأخيران ربما كانا من الكهنة. ومن ثم وعن طريق إنقلاب عسكري تولى مقاليد الحكم في لگش الملك المصلح (أور كاجينا أو حسب القراءة الجديدة لإسمه أور– إنيمجينا ٢٣٥١–٢٣٤٢) ربما كان ينتمي لطبقة الكهنة، وقد قام بإصلاحات اجتماعية واقتصادية من أجل طبقات الشعب المحرومة، وحاول القضاء على نفوذ الطبقات " الأرستقراطية" من الكهنة والحكام، وقد ظهر مصطلح الحرية لأول مرة في إصلاحاته، إذ تم ترجمت العبارة (ama–ar–gi) حرفياً (يسمح بالرجوع إلى أمه) على أنها الحرية . عموماً فأن حكمه لم يدم طويلاً، إذ حكم ثمانية سنين فقط، وقضي عليه من قبل حاكم (أوما) (لوگال زاجيزي ٢٣٤٠–٢٣١٦) وكان ملكاً طموحاً، ويحمل أبوه إسماً سامياً، وكان كاهناً للإلهة (نسابا) في مدينة (أوما) لكنه كان ذا ميول عسكرية، واتبع سياسة الفتح العسكري والتي كان من نتائجها، كما إدعى، أنه أخضع معظم البلاد الأجنبية لسيطرته، وأنه حكم في سلام وازدهار(من البحر السفلي وعلى طول نهري دجلة والفرات إلى البحر العلوي) أي من الخليج إلى البحر الأبيض المتوسط. وبدأ حياته بالسيطرة على الوركاء ولقب نفسه(ملك الوركاء) وجعلها عاصمة له. كما تلقب بـ(ملك كيش) حيث ضم المدينة لسلطته، وكذلك مدينة (نفر أو نيبور) المدينة ذات المكانة الدينية العالية، فهي مقر كبير الآلهة السومرية(أنليل). وإدعى أن جميع حكام سومر وحكام البلاد المستقلة إنحنوا لتحكيمه في الوركاء، ولا يعرف مدى صحة هذه الادعاءات، أو أنها يمكن أن تكون نوع من المثالية والطموح. الباحثان جون وديفيد أوتس أشارا إلى أن الاكتشافات الأثرية في السنوات

الأخيرة تدعم إدعاته على نحوٍ متزايد.إلا أن حكمه لم يدم طويلاً وهزم في القتال من قبل رجلاً سيكون له السبق في إنشاء أول إمبراطورية في التاريخ وهي الإمبراطورية الأكدية .

المحاضرة التاسعة

العصر الأكدي (٢٣٣٤ -٢١٥٤ ق.م)

كانت الإمبراطورية الأكدية من صنع سلالة واحدة كما أوردنا ، وكان الملوك الخمس الأوائل فيها هم الأعظم والأكثر شهرة، وسنشير إلى فترات حكمهم قبل الدخول في الحديث عن تفاصيل مملكتهم.

١. سرجون : الأب والمؤسس من حوالي (٢٣٣٤ –٢٢٧٩ ق.م.) ويضع بعض الباحثين بداية حكمه في حوالي ٢٣٧١ ق.م. عموماً فإنه حكم ٥٦ حسب الشائع من الأخبار.

٢. ريموش : وهو الإبن الأصغر لسرجون وحكم من حوالي (٢٢٧٨ –٢٢٧٠ ق.م) وحكم حوالي ٩ سنين.

٣. مانيشتوشو : وهو الإبن الأكبر لسرجون وحكم من حوالي (٢٢٦٩ –٢٢٥٥ ق.م) وحكم حوالي ١٤ سنة.

٤. نرام– سن : الحفيد الشهير لسرجون وحكم من حوالي (٢٢٥٤ – ٢٢١٨ ق.م) وحكم حوالي ٣٦ سنة.

٥. شار–كالي– شري : إبن الملك نرام – سن وحكم من حوالي (٢٢١٧ –٢١٩٣ ق.م) وحكم حوالي ٢٤ سنة.

أما الملوك الباقون فمن الصعب أن نضع تسلسلاً واضحاً مثل سابقيهم، ومع هذا سوف نعرضه كما هو شائع :

١. إگيگي = Igigi.

٢. نانئيوم = .Nanium

٣. إمي =Imi.

٤. إيلُول– دان = Elul–dan. وهؤلاء الملوك الأربع، الظاهر أنهم حكموا لفترات قصيرة جداً من حوالي ٢١٩٢ –٢١٩٠ ق.م. ولعلهم تقاسموا الإرث القومي فيما بينهم آنذاك.

٥. دودو=2189–2169 dudu ق.م.

٦. شو–تورول أو دورول =2154– 2168. Shu–Turul ق.م.

سرجون المؤسس :

أسس سرجون (شرُّم- كين = الملك الشرعي أو الصادق) سلالة حاكمة عرفت بإسم السلالة الأكدية أو الدولة أو الإمبراطوية الأكدية نسبة إلى العاصمة (أكد =Agade) التي نجهل مكانها الحقيقي، وإن كان هناك من يرى أنه في كل الأحوال يقع بالقرب من مدينة كيش و بابل. وتقول (أوتس) من المحتمل أنها تقع في مكان ما ضمن حدود بابل المتأخرة نفسها. ويذكر أحد نصوص الفأل من العهود المتأخرة، أن سرجون أخذ تراب بابل لتأسيس مدينة تنافسها، الأمر الذي أغضب إلهها(مردوخ) وصار هذا الحدث من أسباب سقوط سلطان الأكديين. وأعتقد البعض أنها بالقرب من(سبار) في اليوسفية، ورأى آخرون أنها تل الدير حوالي ٦ كم شمال غرب اليوسفية لكنهم لم يقدموا ما يؤيد ذلك. ويعتقد آخرون أنها تحت بغداد الحديثة.

إن إسم سرجون الحقيقي مجهول لنا – فهو لم يكن قد ولد " ملكاً شرعياً " (ربما لهذا السبب تلقب بلقبه الذي أشرنا إليه أعلاه) – وقد يكون سومرياً كما تقول " أوتس" ويعده أسلافه لغزاً غامضاً. ويحتمل أنه كان الإبن غير الشرعي لكاهنة، إذ يصف على لسانه كيف أن أمه قد اضطرت لرميه في النهر فأنتشله بستاني اسمه (اكي) الذي رباه وعلمه فنون البستنة، وأن الإلهة عشتار أعجبت به فمنحته ملوكية البلاد. جاء في النص ما يلي :

أنا سرجون الملك العظيم ،

ملك بلاد أكد

كانت أمي كاهنة عظمى " إنتو"

وأنا لا أعرف أبي.

ومن المعروف أن هذا اتجاه شعبي معروف في جميع أنحاء العالم، من موسى إلى روموولوس لتفسير الأصل الغامض للرجال العظام الذين كونوا أنفسهم بأنفسهم. [قارن بين قصة موسى في التوراة والقرآن]. يمكن فحص بعض النقاط في هذه القصة من أجل تلمس بعض الحقائق، فالمدينة التي ذكرت بأنها كانت مسقط رأس أو تربية الملك هي مدينة [آزوپيورانو =Azupiranu = مدينة الزعفران (التي لم تذكر في مكان آخر)]، والواقعة على نهر الفرات. وقد أطلق على الأماكن التي تجول فيها آباؤه " الجبل" وقد يفهم من ذلك أنه يشير إلى سلسلة جبال الصحراء وأن " ضفاف نهر الفرات" هو اسم منطقة معينة حول مصب نهر الخابور أو البليخ. وهي المنطقة التي كانت تسكن من قبل الأقوام السامية، وهم البدو الرحل الذين كانوا يعيشون حياة رعوية. وكانوا يتركون هضبتهم شبه الصحراوية وحياتهم المتنقلة من وقت لآخر. أما أفراداً أو بشكل جماعات ليستقروا في المدن الواقعة على النهر، ولاسيما في مدن بلاد بابل الغنية. وعليه فأن أسطورة سرجون ربما تشير إلى أصله السامي. إذ يبدو من سياق القصة أن سرجون ولد في أحد الجماعات السامية التي كانت مستقرة آنذاك على الرغم من أن أجداده

كانوا لا يزالون يعيشون حياة شبه بدوية في وقت سابق. وقد دخل الحياة السياسية في مدينة كيش، المركز السامي الكبير، ولا يعرف كيف تم ذلك، ودخل في خدمة أور- زبابا (حوالي ٢٣٤٠-٢٣٣٤ ق.م)، الملك الثاني في سلالة كيش الثالثة، إذ عمل ساقياً، ثم تقدم سريعاً إلى منصب وزير. ويبدو أنه قاد فيما بعد ثورة (أو انقلاب عسكري) ضد ملكه ربما في أعقاب اندحار الملك في حرب دمرت قوة كيش. وقد حالف سرجون حظ استثنائي (نسبته الأخبار المدونة إلى أنه كان محبوب الإلهة عشتار، إلهة الساميين العظمى) مكنه من النجاح وتحقيق سلطة شخصية حول موقع مدينة أكد التي أما أنه قام بتأسيسها أو أنه وسع مدينة كانت موجودة سابقاً واتخذها عاصمة له. ورغم أننا نعرف الكثير عن غزوات سرجون وانجازاته، إلا أن تسلسل الأحداث الدقيق لها يبقى غير مؤكد نتيجة طول مدة حكمه البالغة ست وخمسون عاماً كما أشرنا. تشير السجلات إلى انتصاره على (لوگال زاجيزي) ملك أوما ونقله مكبلاً بالأغلال إلى بوابة (إيگور) في نفر ليلعنه كل مار. ودونت سجلاته (أربع وثلاثون معركة) بحيث سيطر سرجون ليس على أكد وحدها بل على سومر إلى البحر السفلي (الخليج) حيث (غسل أسلحته) في احتفال شعائري بانتصاره ، ثم توجه نحو الغرب واستولى على (توتول =هيت) وماري و يارموتي و إيبلا (تل ماريخ جنوب حلب) حتى وصل غابات الأرز في لبنان. وتشير الأدلة الحديثة من تل براك إلى انه ربما وصل حتى نهر الخابور في حملاته. ويروي نص باسم (ملك المعركة) وجد على لوح مسماري عثر عليه في مصر، قصة التجار الأكديين في مدينة (بوروش - خاندا) في الأناضول، التي يعتقد بأنها تقع في مكان ما جنوبي توزگولو أي البحيرة المالحة الكبرى، الذين يناشدون سرجون تبني قضيتهم في خلاف محلي غير محدد. وتعرض مغريات على الملك الأكدي الذي يقال: أنه زحف بصعوبة كبيرة إلى(بوروش- خاندا)، حيث يكفي وجوده وحده كما يبدو للتوصل إلى تسوية لمظالم التجار. ويشير نص حتي من القرن السابع عشر ق.م إلى وجود سرجون في آسيا الصغرى (جنوب تركيا)، ولكن لا يؤخذ به إلا قليلاً لعدد من الأسباب منها عدم توفر الأدلة المعاصرة، وانتشار قصص مشابهة عن نرام- سن، حفيد سرجون. بإيجاز يمكن القول أن هذا الملك يستحق لقب الملك العظيم، حيث استحوذت انتصاراته على خيال البابليين بحيث يصعب الآن تمييز الرجل عن الأسطورة وحتى بعد ١٧٠٠ عام توجد أصداء انتصاراته في (خريطة العالم) البابلية الوحيدة المعروفة.

سلالة سرجون :

أعقب سرجون إبنه الأصغر(ريموش) ولا يعرف لماذا تم تنصيب الإبن الأصغر وليس الأكبر(ربما يكونا توأمان كما سنرى عند الحديث عن الملك الآخر) وجد هذا الملك مملكة تمزقها التمردات والثورات الداخلية، رغم إدعاء والده أن (الأقطار جميعاً ثارت عليه، عندما تقدم في

السن وحاصرته في أكد، وأنه قضى عليها)، إلا أن ابنه عندما تولى الحكم وجد بلاد تتقاسمها الاضطرابات، واستطاع أن يستعيد قسم إمبراطورية والده، وادعى مثل والده إنه سيطر (من أجل أنليل) على البلاد كلها من البحر الأعلى إلى البحر الأسفل، إضافة للجبال جميعاً) وقد وجد ما يدل عليه في تل براك، كما ورد ذكر ريموش في شمال نينوى وذلك من خلال تأسيسه مدينة سميت بإسمه. وقد تحالفت قوى متعددة ضده منها عيلام وواراخشي في محاولة للتخلص من سيادة أكد. عموماً لقد قتل هذا الملك في مؤامرة في القصر، فقد اغتالته بعض أفراد الحاشية وربما كان معهم شقيقه(الأكبر) مانيشتوشو الذي خلفه في الحكم، والذي يعني اسمه (من هو معه) ربما يشير الإسم إلى أن الأخوين كانا توأمين. كان لهذا الملك ما يشغله في البداية، أي الثورات في المدن الشرقية التابعة له في الشرق منها انشان و شريكو، والتي أُضطر بسببها إلى هزم حلف ضم ٣٢ ملكاً اتفقوا ضده، من أجل استعادة السيطرة على عيلام. كما أنه على ما يبدو سيطر على بلاد آشور. ويبدو أنه قتل أيضاً في تمرد في القصر، وخلفه إبنه (نرام–سن أو نرام–سوين = محبوب الإله سن) الملك الشهير الذي برهن أنه كان حفيداً جديراً بالإنتساب إلى سرجون. ربما تكون إمبراطورية نرام– سن أوسع من جده سرجون. ويدعي إنه دحر أرمان (ربما حلب) وإيبلا التي (لم يكن قد دمرها أي ملك منذ بدء البشرية)، كما أنه يدعي أنه رحل إلى (تالهاتوم) في الأناضول. عموماً فإنه كان نشطاً في جنوبي تركيا، حيث عثر على مسلة تحمل تمثاله قرب ديار بكر التركية الحديثة. وسيطرته على الشمال واضحة من خلال سيطرته على تل براك، التي عثر فيها على بناية محصنة تحصيناً قوياً، تعرف بحصن(أو قصر) نرام – سن. وإلى الشرق في بلاد عيلام شيدت مباني باستعمال الآجر المختوم باسمه. وكانت الهيمنة الأكدية على سوسة كاملة جداً، بحيث أن الوثائق المتعلقة بالقانون المحلي والإدارة دونت بالأكدية وليس باللغة العيلامية المحلية. حاول هذا الملك متابعة خطوات جده، وأراد أن يصل إلى مناطق لم يسبق لأحد أن وصل إليها. ومن مآثر هذا الملك تلقبه بلقب(إله أكد) ووضع العلامة الدالة التقديس قبل اسمه، وهي النجمة العلامة (dingir) التعريفية التي تسبق اسم الآلهة، كما لقب نفسه مثل جده بلقب (ملك الجهات الأربعة) وهو لقب جديد يؤشر فضلاً عن اتساع السلطة، يؤشر الارتفاع غير الاعتيادي لسلطة الملك و تعاظم نفوذه، وربما يكون أيضاً ذو مدلول ديني لتثبيت السلطان السياسي، إذ إنه كان لقباً خاصاً ببعض الآلهة العظام مثل(آنو) و(أنليل) و(شمش) بصفتهم أسياد الخليقة والكون، وباتخاذ الملوك الأكديين هذا اللقب صاروا ممثلين لهؤلاء الآلهة في حكم العالم. خلف نرام– سن إبنه شار–كالي –شري،الذي ورث مملكة تبدو في الظاهر ذات مجد كبير، ولكن هناك في الخفاء علامات كثيرة تدل على ضعف الإمبراطورية الأكدية الحقيقي والتي كانت تزداد بمرور الزمن حتى تحت قيادة ملوك فعالين مثل نرام – سن، وقد تكون تجزئة الإمبراطورية قد بدأت منذ عهده. ولم يعد الإبن يحمل اللقب

الملكي وهو(ملك الجهات الأربعة) بل اكتفى بلقب(ملك أكد)، وقد حاولت عدة مدن أن تنبذ الحكم الأكدي ومنها الوركاء الشهيرة، وحصلت عيلام على استقلالها أخيراً. ومع هذا ينسب إليه أنه شن حملات على مناطق في الشمال وأخرى في الغرب ودحر الأقوام (الآموريون) التي ورد ذكرها في الوثائق لأول مرة في عهد هذا الملك والذين سوف يكون لهم شأن كبير في مملكة بابل فيما بعد، وقد هزمهم هذا الملك عند جبل (باسور = بشري) في شمال سوريا. عموماً يبدو أن الملك شار–كالي–شري، لقي النهاية العنيفة التي لقيها ولدا سرجون، ولكن في ظروف اضطراب أشد. وفي الفترة التي أعقبت موته سيكون هناك ظهور لأقوام عرفت بالأقوام (الگوتية) وسوف نعرف بها في مكان آخر. عموماً أعقب إنتهاء حكم شار–كالي–شري فترة فوضى تصفها قائمة الملوك بعبارة مؤثرة ومعبرة : (من كان ملكاً ؟ ومن لم يكن ملكاً ؟). وكما ذكرنا فقد حكم أربعة ملوك لسنتين فقط وفقاً للسجلات، أما الملكين الآخرين فلم يحكما سوى منطقة أكبر قليلاً من المدينة نفسها وربما سيطر الملك الأخير (شودرول) الذي كان على شيء من القوة، على الأراضي الواقعة نحو الشرق في منطقة ديالى، وربما دخل في اسم هذا الملك اسم نهر ديالى القديم وهو (دورل).

سقوط الإمبراطورية الأكدية :

هناك بعض التفسيرات التي تحاول أن تضفي طبيعة أسطورية لسقوط الإمبراطورية الأكدية من خلال عرض أسطورة الملك نرام – سن، المعروفة بـ(لعنة أكد) والتي تروي جانباً من الأحداث والكوارث التي حلت بالبلاد، فبعد أن قام نرام–سن بنهب مدينة نفر وتدنيس معبد أنليل المعروف بمعبد(أي – كور)، ورسو سفنه أمام المعبد لتحميل الغنائم، ونقلها إلى أكد. وإستناداً إلى القصة سخط أنليل سخطاً شديداً بسبب إنتهاك حرمة المعبد ولجأ إلى الگوتيين من أجل الإنتقام. فقد هجمت أقوام ذوي هيئات غريبة، يشبهون الغربان من ناحية الوجه وأجسامهم أجسام طيور، وقد انحدروا من أواسط الجبال، وكانوا ذوي قوى وبطش وجموعهم غفيرة، واسم ملكم (آنو– بانيني) واسم أمهم (ميليلي)، يقودهم سبعة أخوة زحفوا من الجبال الشمالية المحاذية لتخوم الإمبراطورية، واكتسحوا في طريقهم بلاد الأناضول وبلاد(سوبارتو) وهي بلاد آشور، ووصلوا حتى دلمون في الخليج. وقد عم الإضطراب نتيجة وجودهم، ولم يكن يعرف إن كانوا من البشر أم من الشياطين، وبعد أن تأكد الملك من أنهم من البشر من خلال إراقة دمائهم. فأستخار الملك رجال الفأل، ورغم كون النتيجة غير مشجعة، إلا أن الملك هاجمهم فحلت بجيوشه الكارثة، وحل القحط والجوع بالبلاد، وكذلك الطاعون لمدة ثلاثة أعوام، وفي السنة الثالثة تدخل الإله(أيا) وأقنع الآلهة بالكف عن عقاب البلاد، وشعر نرام– سن بذلك عن طريق استشارة الفأل في رأس السنة الثالثة، ويبدو

أنه قضى عليهم. عموماً إن هذه القصة ذات أهمية حيث أنها من أقدم المحاولات المدونة لـ " تفسير" حدث تاريخي معروف في إطار الفكر المعاصر. وهكذا فأن سقوط أكد لا يمكن أن يفهم إلا في إطار عمل ما سبب هجر الإله أنليل القضية الأكدية .

إذا ما تجاوزنا الجانب الأسطوري، وحاولنا سبر الأغوار من أجل معرفة الحقيقة، سنجد بعض المسائل التي يمكن عرضها كما يلي :

١. إن التوسع الكبير في أجزاء الإمبراطورية وفرضها الجزية على كثير من الأقوام، أدى إلى أن تثور وتتمرد الكثير من هذه الأقوام والمدن وبخاصة المدن السومرية، حيث حدث تمرد على سلطة الأكديين في المدن الرئيسية لبلاد سومر وأكد بما في ذلك كيش والوركاء، وسبار.

٢. غزو الأقوام الجبلية وضغطها على بلاد وادي الرافدين، واصطدامها بالأكديين. ومن هؤلاء الأقوام الگوتية وجيرانهم اللولوبية وكذلك الخورية في الشمال.

٣. ضغط الأقوام الآمورية من جهة الغرب، وربما يكون هذا ناجم من تطرف المناخ الجاف الذي أدى إلى أن تهجر هذه الأقوام البدوية مواطنها بحثاً عن أماكن أكثر ملائمة من الناحية الإقتصادية. فمن المعروف أنه مع بداية الإمبراطورية الأكدية بدات مرحلة مناخية مغايرة لسابقتها وتميزت بشدة الجفاف الذي استمر حتى ١٩٥٠ ق.م هذه الأحوال المناخية دفعت السكان في بعض مناطق سوريا بالتوجه نحو الشرق وهجرة جزئية للساميين الغربيين إلى شمال بلاد وادي الرافدينن وحتى إلى الجنوب.

٤. ربما يكون التوسع العسكري الذي بدأ مع الملك المؤسس سرجون الذي كان أول من أوجد نظام الجيش القائم الدائم، وأحدث تغيرات أساسية في أساليب القتال والسلاح، منها دك وتحطيم أسوار المدن المعادية، واستعمل الأسلحة الخفيفة وفي مقدمتها القوس والسهم. ربما يكون هذا التوسع العسكري ومتطلباته المادية، قد فاق إمكانيات الدولة، وربما استنزفها اقتصادياً وخلق تذمراً اجتماعياً.

بالعودة إلى القصة التي تؤشر سقوط أكد، والتي تقدم وصفاً مفعماً بالحيوية للمدينة المثالية الأكدية، ومبانيها المليئة بالذهب والفضة والنحاس واللازورد ومواطنيها الحكماء المرحين. وعندما (تحولت حكمة أكد إلى حماقة) حسب تعبير الكاتب، ثم يبدأ بعد ذلك فاتر للتدمير اللاحق: قطعت الاتصالات وانتشر قطاع الطرق، وخُربت نُظُم الري، وانتشرت المجاعة الشديدة في البلاد (هذه نتيجة مفجعة دائماً للظروف غير المستقرة). ويصور كاتب هذه القصة الملك نرام– سن قانطاً بمفرده رافضاً الكلام ومرتدياً الملابس السود، وقد أهمل عرباته وزوارقه. ثم يقرر ثمان من الآلهة بعد بما جرى على المدينة من خراب، أن يعملوا على تهدئة غضب الإله أنليل من أجل مصلحة البشرية. ويقسموا بأن يدمروا أكد تدميراً تاماً، وإحلال لعنة طويلة على تلك المدينة :

لتتناثر بساتينك كالغبار...

ليعد آجرك إلى أعماق الأرض....
ليتحول قصرك الذي شيد بقلب
مفعم بالفرح ، إلى خراب كئيب....
لينطلق الثعلب الذي يجوب
التلال في المكان الذي جرت
فيه شعائرك وطقوسك ...
ليعجز كل إنسان عن المشي،
بسبب الثعابين والعقارب...

ويختتم المؤرخ الشاعر القصة قائلاً : إن هذا ما حدث فعلاً. بقيت أكد بعد ذلك مقفرة وغير ومسكونة. ولم يعرف أننا بعد ذلك بأربعة آلاف عام مازلنا نبحث عن بقاياها.

المحاضرة العاشرة

الكـــوتيـــن :

عمت الفوضى بلاد وادي الرافدين بعد سقوط أكد، وقد أوردت الكتابات المسمارية العبارة الشهيرة(ترى من كان ملكاً؟ومن لم يكن ملكاً؟) التي تعبر بدقة متناهية عن حالة الاضطراب والتدهور، ويبدو من الوقائع أن للأقوام الگوتية اليد الطولى في سقوط الإمبراطورية الأكدية، وكانوا السبب المباشر في هذه النهاية المأساوية لهذه الإمبراطورية المترامية الأطراف. إذ جاء في رسالة لآخر الملوك الأقوياء في هذه الدولة (شار–كالي–شري) ، أن الگوتيين كانوا يخربون المدن وينهبون ثرواتها واستولوا على ممتلكات الناس ونهبوا ماشيتهم، كما أنهم دنسوا حرمة المعابد ومنها معبد عشتار في آشور، عموماً لم يسلم من أذاهم شيء.

من هم الگوتيون ؟

ما نعرفه عن هذه الأقوام كان قليلاً جداً، ويبدو أن هذه القبائل الغازية البربرية كانت تعيش في جبال زاگروس في القسم الشمالي الشرقي من بلاد وادي الرافدين، وقد كانت منطقة جبال (گوتيم) في جنوب غرب إيران، الجزء المزعج في الإمبراطورية الأكدية. وفي أسماء السنين لآخر الملوك الأكدين، يسجل حملة ضد منطقتهم هذه. وقد انتهزت هذه المجموعات المقاتلة حالة الوهن والضعف التي دبت في أوصال الإمبراطورية الأكدية، فاكتسحت بلاد أكد ومن ضمنها العاصمة

أكد، وشغلوا فاصلاً زمنياً يقدر بنحو قرن من الزمان يمتد من حوالي ٢٢٢٠ –٢١٢٠ ق.م. أو أكثر قليلاً(حوالي ١٢٥ سنة).

وتذكر جداول الملوك السومرية مدد حكم وأسماء واحد وعشرين ملكاً لهم. ونظراً لقصر مدة حكمهم(إذ أن حكم واحد منهم فقط زاد عن سبع سنين، في حين كان نصفهم مدة حكمه ثلاث سنين أو أقل) لذا من المرجح أن أغلبهم كانوا عبارة عن رؤساء يعينون لمدة معينة.

عموماً يبدو أن أحدهم قد اتخذ لقب (ملك الجهات الأربعة) أي ملك العالم، وهو اللقب الذي استعمله الملوك الأكديين فيما سبق، فضلاً عن لقبه المعروف وهو (ملك الگوتيون) وهذا الملك هوأريدو– بيزار، وقد وضع تمثاله في معبد الإله أنليل في مدينة (نفر) لمجاراة وتقليد ما كان يفعله الملوك الأكديون. ويبدو أن هذا الملك هو الوحيد منهم من أحتل وحكم بعض مناطق الجنوب وأحتفظ بها لبعض الوقت وترك لنا نصاً طويلاً في مدينة نفر.

ويبدو أن هؤلاء القوم كانوا أقل شأناً من الناحية الحضارية، بل يصفهم الكثير من الباحثين وفقاً للمعطيات الأثرية والنصية، بأنهم أقوام بربرية، لذا فأنهم لم يبنوا ولم يتركوا ولم يجلبوا أي شيء خاص بهم أو جديد إلى بلاد وادي الرافدين. لذا عمدوا إلى تبني المفاهيم والأسس التي كانت سائدة في الإمبراطورية الأكدية، ففي الجانب السياسي اتخذوا الألقاب الملكية الأكدية، خصوصاً وأنهم كانوا يجهلون على ما يبدو النظام الملكي، باعتباره شكلاً متقدماً من أشكال الحكم، وربما كانوا يتبنون نظام الأُسر أو النظام القبلي في مواطنهم الأصلية. وفي الجانب الديني ربما أنهم اقتبسوا بعض الآلهة الأكدية وطابقوها مع آلهتهم. وتوضح النصوص التكريسية و النذرية أنهم تبنوا الديانة الرافدينية، إذ لا مؤشرات عن ديانة خاصة بهم. ويبدو أنهم لم يخلفوا الإمبراطورية الأكدية بشكل كامل، إذ أن العديد من حكام المدن قد وجدوا على نحو مستقل عن حكمهم، والظاهر أن تواجدهم انحصر أو تركز على القسم الشمالي من بلاد بابل (بلاد أكد)، وربما نتج هذا من قربه من مواقعهم الأصلية. وحتى في هذا الجزء من البلاد كان احتلالهم ضعيفاً وبقطعات قليلة هنا أو هناك أو حاميات عسكرية في النقاط الستراتيجية. أما الأقسام الجنوبية من بلاد بابل(بلاد سومر) فأنها ربما تمتعت ببعض الاستقلالية، تجسدت من خلال قيام سلالة حاكمة ذات قوة ونفوذ وتأثير حضاري واضح، وهذا ما حصل في ظل السلالة الثانية في مدينة لگش، إذ أن هذه المدينة أُعيد بناؤها وارتفع شأنها، بعد أن دمرها الملك(لوگال–زاگيزي) حاكم أُوما المعادية كما أشرنا، ويبدو أنها استعادت أهميتها ومكانتها كميناء نهري مهم، خصوصاً بعد تدمير العاصمة أكد وزوالها، باعتبارها المنافس الرئيس لها. فقامت في هذه المدينة سلالة بارزة، ربما استغلت عدم وجود حكومة مركزية قوية، لذا تمكن حكامها من توسيع نفوذهم وسلطانهم حتى إلى خارج بلاد وادي الرافدين، رغم وجود الگوتيين، علماً بأن جداول الملوك السومرية أغفلت ذكر هذه السلالة ولم تذكر شيئاً عنها، إلا أن مجمل معلوماتنا عنها جاءت من خلال

النصوص الكتابية التي خلفتها هذه السلالة. فقد أوردت الكتابات المسمارية أسماء ست ملوك حكموا في هذه السلالة، ويعتبر(أور – باو أو أور– بابا ٢١٦٢–٢١٤٢ ق.م) مؤسس هذه السلالة، وكانت عاصمة لگش في هذه الفترة (گرسو) وليس (تل الهبة) وقد امتدت سلطته على أجزاء كبيرة من بلاد سومر(القسم الجنوبي) من بلاد وادي الرافدين، إلا أنه على ما يبدو لم يستطع أن يسيطر على مدينة أور القريبة، ربما لوجود حاكم قوي فيها، والدليل على عدم سيطرته إنه لم يستطع أن ينصب إبنته(أينانيبادا) كاهنة عليا على معبد(ناڼا) في مدينة أور، كما فعل سرجون وأسلافه.

إلا أن أشهر حكام هذه السلالة الملك (گوديا٢١٤١ –٢١٢٢ ق.)،الذي ربما كان إبناً لـ(أور– باو) أو حفيداً له من إبنته، هذا الملك إقترن إسمه بالأدب السومري وبناء المعابد، وقد كشف المنقبون الفرنسيون الذين عملوا في أطلال مدينة لگش عن نحو أكثر من عشرين تمثالاً مصنوعاً ومنقوشاً لهذا الملك الذي اتصف بالتقوى والصلاح، وكانت هذه التماثيل مقامة أصلاً في معابد مدينة گرسو(تلو حالياً)، وما أن عرضت في المتاحف ونشرت صورها، حتى أصبح الوجه السومري معروفاً جداً لدى العالم الحديث. ظهر الملك في هذه المنحوتات بأوضاع مختلفة جميعها تعبدية، منها حالة الوقوف والجلوس أو حاملاً في إثنين منها رسم أو مخطط للمعبد، وأغلبها في بالحجم الطبيعي تقريباً، وبعضها تحمل كتابات مسمارية باللغة السومرية، وعملت في معظمها من الحجر الصلب الأسود (الديورانت).

إن معظم معلوماتنا عن هذه الفترة مستمدة بالأصل من الكتابات التي حملتها تماثيل ملوك هذه السلالة وبشكل خاص تماثيل الملك گوديا، فضلاً عن مخرايط طينية تحمل كتابات تذكارية خاصة بتأسيس المعابد، ومنها على وجه الخصوص أسطوانتي كبيرتين من الطين تعرفان بين المختصين بالمسماريات بأسطوانتي گوديا، وهما يحتويان على أطول النصوص السومرية، إذ يخلد فيهما بنائه معبد (الخمسين = أي– ننو) الخاص بالإله (ننگرسو) إله لگش. لقد زودتنا هذه التراتيل الأدبية– الدينية بنفاذية جديدة في الأدب الديني عند السومريين. وأصبحت كتابات هذا الملك هي المادة الأساسية في دراسة قواعد اللغة السومرية. وعلى الرغم من تقوى هذا الملك وانشغاله بالأمور الدينية وبناء المعابد، إلا أنه أورد إشارات عن قيامه بحملة عسكرية في انشان في جنوب بلاد عيلام، فضلاً عن صلات تجارية واسعة مع كل من الأناضول حيث جلب الذهب، ومع لبنان وغابات الأرز فيها وكذلك مع دلمون في الخليج. خلفه في حكم هذه المدينة من أبناء سلالته بعض الملوك الأقل شأناً، والذين لا نعرف عنهم سوى أسمائهم. بشكل عام يمكن القول أن حكام هذه السلالة كانوا يبتغون هدف سرجون وخلفائه، وهو إحتكار تجارة مواد ضرورية معينة، وبالتالي تطبيق اقتصاد حكومي إلى درجة ما. غير أنهم تابعوا تحقيق هذا الهدف بوسائل مختلفة تماماً وتقليدية في بلاد سومر وتقوم على أسس اقتصادية أكثر من الأسس

الاقتصادية. فقد وصل وكلاء (گوديا) إلى نفس الأماكن التي وصلها سرجون عسكرياً، ولكن أتباع (گوديا) كانوا تجار دون مقاصد سياسية.

عموماً فإن هذه السلالة وخاصة في ظل الملك أور– باو و گوديا، قد جلبت الرفاهية والسلام لمدينتها ولكل بلاد سومر. إلا أنها بدأت بالضعف تدريجياً، وفقدت أهميتها بعد أور– ننگرسو إبن گوديا(٢١٢١– ٢١١٧ ق.م) و بيريگمي (٢١١٦ –٢١١٥ ق.م) وربما يكون سبب تضائل أهمية المدينة تجدد قوة مدينة الوركاء ، وبشكل خاص حين ظهور الملك القوي في تلك المدينة وهو القائد العسكري (أوتو– حيگال ٢١٢٣ –٢١١٣ ق.م) الذي حكم في مدينة الوركاء، واستطاع القضاء نهائياً على الوجود الگوتي في بلاد وادي الرافدين، إذ انتصر على آخر ملوكهم (تريگان) وقد جاءت تفاصيل هذا الانتصار في وثيقة سومرية هي تأليف أدبي من بداية الألف الثاني ق.م. تظهر انتصار هذا الملك وفرار نظيره من المعركة ولجوئه إلى مدينة تدعى (دبروم)[ربما هي تل جدر شمال شرق أوما] وقام أهل هذه المدينة بتسليم الملك الهارب مع عائلته إلى أوتو–حيگال. وربما عمل هذا الملك على استعادة السلطة المركزية التي كانت سائدة في ظل الإمبراطورية الأكدية، وقد يكون راوده حلم بناء إمبراطورية على غرار الإمبراطورية السابقة. خصوصاً بعد أن أصبحت البلاد تحكم عن طريق دويلات المدن المستقلة، التي إعترفت بسلطانه، كما أنه حظي برضا وإعتراف مدينة (نفر) ولقب نفسه ملك الجهات الأربع، في محاولة منه في محاكاة أسلافه الأكديين. إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما ظهر حاكماً محلياً جديداً كان أكثر قوة وبأساً من سابقه، إنه (أور– نمو) الذي سرعان ما قام بتأسيس إمبراطورية حقيقية كانت مدينة أور، وعرفت بين المؤرخين باسم سلالة أور الثالثة.

المحاضرة الحادية عشرة

سلالة أور الثالثة ٢١١٢ -٢٠٠٤ ق.م.

حكم هذه السلالة خمس ملوك أولهم المؤسس(أور – نمو ٢١١٢– ٢٠٩٥ ق.م) الذي قضى على أوتو–حيگال. والثاني إبنه (شولگي ٢٠٩٤ –٢٠٤٧ ق.م) وثالثهم (أمار– سن ٢٠٤٦–٢٠٣٨ ق .م) والرابع كان (شو– سن ٢٠٣٧ –٢٠٢٩ ق.م) أما خامسهم فهو (إبي – سن٢٠٢٨ –٢٠٠٤ ق.م).

يبدو أن مؤسس هذه السلالة كان قد عين في البداية حاكماً عسكرياً، من قبل أتو–حيگال (ربما كان صهره أو أخيه)، إلا أنه سرعان ما طوح به واستولى على السلطة، واتخذ لنفسه لقب (ملك أور) وهكذا أسس سلالة جديدة في تلك المدينة، كانت من نواح كثيرة بارزة مثل سلالة أكد.

وقد شهد هذا العصر إعادة الملكية إلى مدينة أور، مع عودة إلى استعمال اللغة السومرية كلغة رسمية للبلاد أو على الأقل في بلاد سومر، لذا توصف هذه بأنها فترة (إنبعاث سومري). وهنا لا بد من الإشارة إلى أن السومريين والأكديين قد إنصهروا منذ زمن طويل، وأصبحوا شعباً واحداً متجانساً، له تقاليد وحضارة مشتركة. وفي حين أقر ملوك أكد بوضوح بسلطة الإله السومري الأعلى في نفر، ونظمت إبنة سرجون التراتيل بأرقى لغة سومرية أدبية. كان آخر ملوك سلالة أور الثالثة وأقوى ملكات السلالة يحملون أسماء سامية. إن تعمد استعمال اللغة السومرية في هذا الوقت لا بد أن يعكس إلى حد ما، وعياً بتراث أور الثقافي، وإن نبذ منذ زمن طويل أي تلميح إلى حدوث صراع عرقي.

اتخذ مؤسس هذه السلالة من أور عاصمة له، وسار على نهج سلفه (أوتو–حيگال) وأجبر حكام المدن المستقلة على الخضوع لسيطرته، كذلك حكام المقاطعات والمدن التي كانت تحت السيطرة الگوتية جعلها خاضعة له، ولقب نفسه بلقب(ملك سومر وأكد) إشارة إلى سيطرته على كل بلاد بابل، فضلاً عن تجهيزه حملات على مناطق ديالى، وأخضع مدينة سوسة تحت سيطرته.

وقبل أن نعرض للنظام الإداري الذي كان سمة المميزة لهذه الإمبراطورية، نشير إلى نقاط التشابه والصفات المشتركة مع الإمبراطورية الأكدية السابقة :

١. كلاهما وجد عن طريق إتباع الطرق العسكرية سواءً كان هذا في بلاد وادي الرافدين أو في الخارج.

٢. كلاهما إتبع سياسة مركزية، في مختلف الجوانب السياسية أو الإدارية، وحتى الحضارية.

٣. كلاهما سقط من جراء تلاقي عوامل داخلية (ثورات + حركات تمرد) وأخرى خارجية.

من أبرز ما يؤشر ويسجل في عهد سلالة أور الثالثة تقديمها كم هائل من النصوص المتنوعة، ربما فاقت في عددها حتى ما كتب الإغريق والرومان في زمانهم. إذ تم الكشف عن ما يقارب ٤٠ ألف رقيم حديثاً، فضلاً عن عشرات الآلاف من النصوص الموجودة في المتاحف والمجموعات العالمية. وهي تشمل على إيصالات تعرض جوانب من الحياة الاقتصادية، متضمنة الزراعة بكافة أوجهها، والصناعة والتجارة والضرائب، وعمليات البيع والشراء والاستلام والتسليم.

الجوانب الإدارية :

كان ملوك هذه السلالة يدركون ويعون بشكل كامل المشاكل التي واجهت أسلافهم الأكديين، لذا عملوا على تجاوزها وحلها، أو التقليل من مخاطرها. لذا إتبعوا نظاماً إدارياً حذراً وصارماً على الأقل للحد من ظاهرة التمرد التي تقضُ مضاجعهم الأكديين، وقد تميز هذا النظام بمزايا منها:

١. عملوا على فصل الإدارة العسكرية عن الإدارة المدنية. إذ أن ذلك عمل على تحديد صلاحيات الحاكم المدني، وأصبح هؤلاء عرضة للنقل من مكان إلى آخر في أي وقت يشاء الملك وذلك من أجل أن لا تزداد روابطهم المحلية ويصبحون أقوياء ومؤثرين. وكان هناك قائداً عسكرياً يتصل بالملك مباشرة نظيراً للحاكم المدني. وكان يتم تعيين هؤلاء (الجنرالات) العسكريين من أُناس كانوا في خدمة الملك وهم في الغالب من أجانب. (أكديون، خوريون، عيلاميون)، وليسوا من العائلات القديمة، ويتزوج هؤلاء العسكريون من نساء البلاط الملكي.

٢. تطور النظام البريدي، إذ كانت التقارير من جميع الجهات تتقاطر على الملك بواسطة رُسله مما ساعده على الاطلاع التام على آخر التطورات التي تحدث في الإمبراطورية. ونقرأ في مئات الألواح الطينية، تفاصيل عمل هؤلاء الرُسل، بدءاً من أماكن إنطلاقهم ووصولهم والوجبات التي يحق لهم تناولها في الطريق.

٣. إن أهم التطورات كانت في الجانب الإداري، فقد كانت هذه الإمبراطورية صاحبة أكثر الهياكل الإدارية إتقاناً في العصور القديمة. إذ لم يكن هناك شيء غير مهم لا يستحق التسجيل، ودونت إحصائيات بكل مادة تدخل أية مؤسسة حكومية أو تخرج منها، ودونت بعناية أيضاً المسؤولين عن كل معاملة. وقد عثر على ألواح (مسك الدفاتر) هذه في عدة مدن سومرية. فضلاً عن سجلات الإدارة الحكومية اليومية، فقد كانت تدون أعداد العمال اليومية وأجورهم وغيرها

٤. إعتماد نظام تقويمي، ساعد في متابعة الأحداث التاريخية لهذه السلالة، والذي بدأ مع الملك (شولگي) و إنتهى بنهاية آخر الملوك(إبي – سن) أي أنه استمر حوالي ٩٠ سنة، وقد اعتمد أسماء السنين، وهو بالأساس نظام قديم يشير إلى حدث رئيسي أو مهم من السنة السابقة أو نفس السنة في مطلعها، مثل تحطيم أسوار المدن أو الحملات العسكرية أو بناء المعابد.

٥. إتباع نظام المصاهرة السياسية. فالمعروف عن الملك شولگي ثاني ملوك هذه السلالة أنه تزوج من تسع نساء، وربما كن من عائلات محلية ذات دور مؤثر في أماكن تواجدهم. وعمل آخرون إلى إرسال بناتهم للزواج من أمراء مقاطعات بعيدة، كما حدث مع أمراء بلاد عيلام.

٦. أفرزت السيطرة المركزية والإدارة المركزية نظاماً للضرائب التي كانت تجمع كجزء أساسي من موارد المقاطعة. وقد عرف هذا النظام بالاسم السومري (bala) والذي يعني بشكل أساسي(المبادلة)، عموماً أن هناك إزدهاراً في الناحية الاقتصادية عما سبقوهم، إذ كان هناك الكثير من الأعمال العمرانية في مجال العمارة الدينية والمدنية ومجال الإرواء الزراعي كان لها تأثير كبير في الجانب الاقتصادي.

٧. في الجانب الديني، عين ملوك هذه السلالة بناتهم كـ(كاهنة عليا) في معبد مدينة أور، التابع للإله أنليل.

٨. أشارت الوثائق الإدارية إلى تقسيم الإمبراطورية إلى أربعة وحدات أساسية، وهذا ما أوضحته نصوص الحدود، التي قسمت الإمبراطورية إلى أربعة أجزاء شمالاً من نفر كشد– تاب وآبيك ومرد وأكشاك.

٩. إعتماد التشريعات القانونية، إذ أن أقدم القوانين المدونة بالسومرية يعود إلى مؤسس هذه السلالة أور– نمو، وهو أقدم من قانون حمورابي بحوالي ٣٠٠ سنة.

بشكل عام يمكن القول أن النظام السياسي في عهد سلالة أور الثالثة، ورغم كونه مركزياً إلا أنه لم يكن نظاماً دكتاتورياً صرفاً، وإنما اعتمد على الإدارة البيروقراطية، إذ كانت مفاصل الدولة تدار من خلال مجموعة من الموظفين الحكوميين الذين كانوا يحسنون التصرف كما هو واضح في ما تركوه لنا من تفاصيل إدارية وفنية تنم عن كفاءة وقدرة عالية. الجانب الاقتصادي والإداري كان واضحاً من خلال النصوص الكتابية من هذه الفترة، فهذه النصوص تسجل الأعداد اليومية للعاملين في الحقول وحفر القنوات والحصاد والتحميل، وتحسب معدلات العمل والأجور بالتفصيل، وهذه النصوص توضح اقتصاداً يساهم فيه الأفراد والدولة .

ويشكل برنامج المباني العامة الكثيرة في هذا العصر التي قام بها الملوك في كل المدن السومرية، من أهم سمات هذا العصر، وهي تؤشر مدرسة عمارية راسخة، فرضت خبرتها الفنية ومعاييرها الجمالية، وأضح مثال على ذلك هو الزقورة أو البرج المدرج، الذي يقوم عليه معبد صغير. وقد بنى أور– نمو مؤسس السلالة زقورة أور الشهيرة في مدينة أور، وأكملها إبنه شولگي. ودرس عمارة هذه الزقورة السير(ليونارد وولي) وأشار إلى أنها بناء صلد شيد من ثلاثة أجزاء، ونواتها من اللبن، وربما بنيت حول وعلى برج قديم ربما من عصر السلالات المبكرة، وغطيت بقشرة من الطابوق الذي لصق بالقير السميك، لذا سميت بـ(أور المقير)، ولهذه الزقورة سلم ثلاثي. سمة عمارية أخرى جديدة هي فكرة الفناء المحيط بمجال مكشوف واسع شيد وسط مبنى تذكاري، وكانت له وظيفة جمالية، إذ يمكن مشاهدة الفناء الداخلي الواحد من كافة الجهات. أما في مجال الفن وخاصة النحت، فإن ما يسمى بنصب أور– نمو الذي عثر عليه في مدينة أور، وهو بارتفاع حوالي ٣ م، مقسمة بصورة أفقية تبرز صوراً مرتبطة مع البناء، ويظهر الملك وهو يقوم بأعمال طقوسية. وهي موضوعات ظهرت على الأختام أيضاً. فضلاً عن تماثيل تظهر روعة الفن السومري الأصيل، وعلو كعبه في مجال الفن القديم في بلاد وادي الرافدين.

في الجانب العسكري عمل ملوك هذه السلالة جملة من الحملات العسكرية، فالملك أور– نمو المؤسس قاد حملات متعددة باتجاه المنطقة المحصورة بين دجلة وجبال زاگروس، وفي نهاية

حكم الملك الثاني شولگي كانت مدينة سوسة في بلاد عيلام تحت السيطرة، وتم وضع حاكم عسكري عليها عرف بـ(شاگينا). وقد وصلت حملات عسكرية مناطق في بلاد وادي الرافدين في أربيل وكركوك، وإلى أنشان في إيران، وكذلك الجبال المتاخمة لحدود الأقوام الخورية.

بشكل عام اعتمدت هذه الإمبراطورية أساليب أكثر مدنية وسلمية من الأسلوب العسكري التقليدي في السيطرة ومد النفوذ، وعملت في زمن ملكها الرابع (شو– سن) إلى بناء سور عازل من أجل تفادي هجمات الأقوام الآمورية القادمة من الغرب عرف بـ(سور مارتو = موريك تيدنيم [أي الذي يبعد التندوم وهي إحدى القبائل الآمورية]) يبلغ طوله حوالي ٢٧٠ كم. ومع هذا لم يكن هذا السور فعالاً مثله مثل الأسوار الضخمة عبر التاريخ، وقد زاد ضغط الأقوام الآمورية في عهد خلفه (إبي– سن). وأرغمت هجماتهم، فضلاً عن غزوات العيلامية إبي –سن على تشييد أسوار كبيرة وتحصينات، حول أور ونفر. وهذه هي المرة الأولى التي نسمع فيها عن هجوم خطير على بلاد بابل يشنه شعب ناطق بلغة سامية من الصحراء الغربية، يعرف بـ(مارتو =الغرب) أو الآموريون (الغربيون) عموماً سيكون لهذه الأقوام دوراً مهماً في إسقاط هذه الدولة، كما إنهم سوف يشغلون الجزء الأعظم من أحداث العصر اللاحق الذي سيعرف بالعصر البابلي القديم، إذ إنهم سيشكلون سلالات حاكمة مهمة، منها سلالتي إيسن و لارسا وسلالة بابل الأولى، والتي كان حمورابي من أشهر ملوكها. سيكون العصر البابلي القديم هو محور مبحثنا القادم.

أسباب سقوط سلالة أور الثالثة :

انتهت هذه السلالة على يد الأقوام العيلامية ، وقد كانت هناك جملة أسباب لسقوطها منها:

١. الانتفاضات والثورات الكبيرة، وتحدي ملوكها من قبل السكان المحليين، فقد ذكر في أدب النذور اللاحق الذي يتحدث عن تحدي السكن لسلطة الملك، والانتفاضات والثورات الكبيرة .

٢. شجعت الظروف غير المستقرة في أنحاء البلاد كافة الحكام التابعين للإمبراطورية إلى قطع علاقاتهم مع أور والدفاع عن أنفسهم، وقد كان هذا التفكك تدريجياً، وإن كان واضحاً في حالات كثيرة، أن إعلان الولاء لأور كان شكلياً في الحقيقة.

٣. تدهور الوضع الاقتصادي، إذ تضاعفت الأسعار إلى حد كبير، فقد أصبح سعر القمح مثلاً ستين مرة بقدر سعره العادي، فضلاً عن هجرة الأراضي الزراعية وتدهور نظام الري.

٤. الضغط الذي مارسته الأقوام البدوية من جهة الغرب، فهؤلاء الآموريون ساهموا بشكل كبير ومباشر في القضاء على الكيان السومري من خلال تدفقهم.

٥. الهجوم المباشر من الأقوام العيلامية التي استغلت تردي الأوضاع العامة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً للانقضاض على الإمبراطورية والاستيلاء على عاصمتها، ولم تكن هناك

أية مقاومة فعالة، وبحث الناس عن الأمان بين أسوار المدن. وتم أسر ملكها، وقد تركت حامية عسكرية، طردت فيما بعد على يد القائد (إشبي–إيرا) الآموري الذي سيكون له دور كبير في المرحلة اللاحقة.

٦. من الضروري أن نشير إلى تأثير المناخ في هذه المرحلة، فمع مطلع العام ٢٢٠٠ ق.م.(البعض يرى أنها إبتدأت في عام ٢٣٥٠ ق.م) حلت بمنطقة الشرق الأدنى موجة جفاف أستمرت لما يقارب من ٢٧٨ سنة، ربما تكون قد ساهمت في تدفق الأقوام الرعوية في البوادي المحيطة ببلاد وادي الرافدين، نحو المدن التي حافظت على تنظيم أمورها الإقتصادية، رغم بوادر الأزمات الإقتصادية والإشارات في النصوص الإقتصادية لحالات المجاعة والنقص في الغذاء، وربما يكون السور الذي بناه شو–سن أبرز العلامات على وجود هذه الجائحة المناخية.

لقد سقطت الإمبراطورية أخيراً في هجوم شامل شنه جيش من عيلام مع قوم (سو) أو (سوا الجبليين) من منطقة جبال زاگروس. ونهبت أور ولقي ملكها إبي – سن مصيراً لم يسبق له مثيل، إذ أُقتيد مكبلاً إلى عيلام. وتروي إحدى أكثر القصائد السومرية(تعرف بإسم مرثية أور) تأثيراً هذه الكارثة :

الموتى وليس كسر الأواني،
غطت المقتربات
وكانت هناك فتحات في الجدران،
وعلى البوابات العالمية وفي الطريق،
كانت أكوام الموتى.
وفي الطريق الجانبية، حيث تتجمع حشود المحتفلين،
رقدوا متناثرين.
وفي الشوارع والطرقات جميعاً كانت الجثث.
وفي الحقول المكشوفة التي كانت تمتلئ بالراقصين،
رقدوا أكواماً.
ملأت دماء أبناء البلاد الآن حفرها، مثل المعدن في قالب.
تحللت الجثث – مثل الشحم المتروك في الشمس.

المحاضرة الثانية عشرة

العصر البابلي القديم(٢٠٠٤-١٥٩٥ ق.م)

تمهيد :

يمكن تقسيم العصر البابلي إلى مراحل ثلاث، الأولى تعرف بالعصر البابلي القديم، ويعرف بالعصر البرونزي المتوسط، وتشغل هذه المرحلة القرون الأربعة الأولى من الألف الثاني ق.م. وهو العصر الذي سادت في نصفه الأول السلالات الحاكمة الآمورية، وسميّ هذا القسم بعصر عصر إيسن – لارسا أيضاً، وتميز بالصراع بين المدينتين بشكل خاص. أما قسمه الثاني فشغلته سلالة بابل الأولى، التي إنفردت بالحكم في هذه الفترة في عهد ملكها السادس حمورابي. وقد امتد هذا العصر من سقوط سلالة أور الثالثة وحتى سنة ١٥٩٥ ق.م. وهي سنة سقوط بابل على يد الملك الحثّي مرسيليس الأول. المرحلة الثانية تعرف بالعصر البابلي الوسيط أو العصر الكشي وتبدأ من حيث إنتهت المرحلة السابقة وحتى سنة ١١٥٧ ق.م. وقيام سلالة إيسن الثانية أو سلالة بابل الرابعة كما تعرف بين الباحثين، ومعها تبدأ المرحلة الثالثة التي تعرف بالعصر البابلي المتأخر ومن ضمنه العصر البابلي الحديث، حيث قامت آخر إمبراطورية في مدينة بابل، أقامتها سلالة كلدانية، وبسقوط هذه الإمبراطورية في ٥٣٩ ق.م على يد الأقوام الأخمينية القادمة من إيران تنتهي المرحلة الثالثة ومعها العصر البابلي.

المصادر الكتابية المعتمدة في دراسة العصر البابلي:

إمتاز هذا العصر بحصول المنقبين على الكثير من النصوص الكتابية المسمارية، وأصبحت المصادر الكتابية تعرفنا بالكثير عن المنطقة الممتدة من إيران إلى الأناضول وحتى غرب سوريا، وكانت اللغة البابلية هي المصدر لمعظم التقاليد الكتابية، حتى أنها أُستعملت من قبل أقوامٍ أخرى يتكلمون لغات أخرى مثل الآموريين و الخوريين ، نصوص ادارية واقتصادية والعقود التي تتعلق بالبيع والشراء والإيجار والقروض، فضلاً عن نصوص العيلاميين الذين حاكوا الكتابة الجنوبية و هجائيتها. فقد كشفت آلاف الرقم الطينية في العديد من المدن القديمة في بلاد وادي الرافدين، مثل نفر (نيبور)،إيسن،لارسا،أيشنونّا، ومواقع ديالى الأخرى ومنها مواقع حمرين(تل السيب،حداد ،عبادة و عياش)، ومواقع شمال شرق بغداد مثل تل حرمل (شادوُپم)، فضلاً عن إرشيف قصر ماري. حملت هذه النصوص بمجملها نصوص ذات الطبيعة الاجتماعية ومنها ما يتعلق بالأحوال الاجتماعية من زواج وطلاق وتبني وإرث. وهناك مجموعة من النصوص الملكية التي تسجل نشاط الملوك في البناء وشق القنوات، وإنشاء السدود بإعتبار مثل هذه الأعمال كانت مثار فخر الملوك. وهناك نصوص الفأل التي كثيراً ما تضمنت إشارات تأريخية مهمة، مع ظهور واضح لقوائم جغرافية تذكر أسماء المدن، إما وفقاً لتسلسلها على الطرق أو بحسب كتابة أسمائها. ولدينا كذلك مجموعة من الرسائل منها رسمية وأخرى شخصية بين الأفراد، ومن هذه الرسائل الرسمية رسائل الملك البابلي حمورابي(١٧٩٢-١٧٥٠ ق.م) إلى موظفيه وأتباعه، ورسائل الملك الآشوري شمشي – أدد(١٨١٣- ١٧٨١ ق.م) إلى إبنيه، ورسائل الملك زمريليم(١٧٧٥-١٧٦٢ ق.م) ملك ماري. فضلاً عن مجموعة كبيرة من

النصوص الكتابية وجدت في المستعمرة الآشورية (كانيش)، إذ وجد أكثر من ٢٠ ألف رقيم تعود لتجار آشوريين كانوا في مدينة كانيش في وسط الأناضول، والتي تبعد حوالي ١٠٠٠ كم عن مدينة آشور. وكذلك نصوص العمارنة الشهيرة (موقع مدينة أخيت – أتن القديمة على الضفة الشرقية لنهر النيل، جنوب القاهرة بحوالي ٣٠٠ كم) وهي مجموعة الرسائل من القرن الرابع عشر ق.م. بين دول المنطقة، آشور، مصر، الحوريين والحثيين، وأغلب هذه الرسائل ذات طابع دبلوماسي. وهناك رسائل من الألف الأول بدأت تتناول مختلف شؤون الحياة. وهناك رسائل شخصية كما اشرنا شاعت كتابتها وتبادلها بين التجار والإداريين وحتى عامة الناس. وهناك النصوص التعاصرية للملوك الآشوريين والبابليين. وهناك من هذه الفترة الطويلة نصوص أدبية مختلفة وأخرى دينية وطبية وفلكية ونصوص مدرسية ومعاجم متنوعة. وظهرت الشرائع القانونية متمثلة بقانون أشنونا ولبت– عشتار وأكثرها نضجاً قانون حمورابي، وبعدها القوانين الآشورية.

وسنحاول في هذا المبحث أن نتابع أهم الأحداث في المراحل التي أشرنا إليها. وسوف نبدأ من العصر البابلي القديم الذي نلاحظ فيه أن التركيبات السياسية والاجتماعية في الشرق الأدنى القديم ترينا سمات أساسية متشابهة منها :

١– أن هناك عدد من دويلات المدن كانت تنتشر على المشهد العام من غرب إيران حتى سواحل البحر الأبيض المتوسط.

٢– تنافس حكامها من اجل السيطرة على السلطة، وإن أغلبهم من الرجال العسكريين الذين كثيراً ما ينضمون إلى تحالفات متنقلة ويتحولون بعضهم ضد بعض، كما جاء في رسالة من مدينة ماري يعود بتأريخها على القرن الثامن عشر قبل الميلاد التي نقرأ فيها(لا يوجد ملك واحد هو الأقوى بمفرده، إذ يتبع عشرة أو خمسة عشر ملكاً حمورابي في بابل، ويتبع عدد مماثل كلٌ من ريم– سن ملك لارسا و إبال– بي– أيل ملك أشنونا و آموت– بي– أيل ملك قطنة، ويتبع عشرون ملكاً ياريم– ليم ملك يمخاد (حلب). وفي نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن الثامن عشر قبل الميلاد يظهر إتجاه جديد نحو تشكيل وتكوين دول كبيرة تبلورت في إمبراطورية حمورابي ملك بابل(١٧٩٢–١٧٥٠ ق.م.). وقد يقال أن هذه الإمبراطورية كانت التعبير السياسي الأخير عن الهجرة، كما كانت الإمبراطورية الأكدية تعبر عن تدفق الأكديين إلى بابل.

عموماً هذا الأمر يحتاج إلى عدد من التحديدات على الأقل. فالسلالة الأكدية كان لها السلطة الإمبراطورية لمدة قرن ونصف، في حين استمر الحكم الذي آل إلى سلالة حمورابي (سلالة بابل الأولى) لمدة قرنين. ولم ينتج عن مجيء الآموريين دخول لغة مكتوبة جديدة كوسيلة للتعبير الحضاري. وفي عهد سمسو – إيلونا، خليفة حمورابي مباشرة، كانت خصوصية بلاد وادي الرافدين التقليدية تمزق نسيج الإمبراطورية. فضلاً عن ظهور خطر جديد على بلاد بابل في الشرق وهم الكشيون، غزاة بابل المقبلون وحكامها لأربعمائة سنة. إن مصطلح العصر

البابلي القديم ليس مصطلحاً تاريخياً فقط، بل أنه مصطلح لغوي أيضاً. فاللغة الأكدية تمتلك تاريخاً يمكن متابعته من خلال الوثائق المدونة، استغرق ألفين وخمسمائة سنة، ويمكن تقسيم هذا التاريخ إلى عدة مراحل .عموماً فإن مصادرنا عن هذا العصر كانت غزيرة وهي في معظمها من بلاد بابل، لذا فإن تصورنا عن تاريخ الفترة أساساً (بابلي) كما يعني المصطلح (العصر البابلي القديم) ذاته ذلك. وإن ذلك لا ينطبق على التاريخ السياسي فقط، ولكن على فهمنا للخلفية الاجتماعية والثقافية للعصر أيضاً. فقد انتهى النظام الاجتماعي الذي يدين بأُصوله إلى (دولة المعبد السومرية)، ونشهد هنا مولد مجتمع كان قد أخذ فيه القطاع الخاص في الاقتصاد بملكية الأراضي والثروات الخاصة.

فقام إلى جانب القصر بنشاطاته الاقتصادية وبطبيعته الرسمية. أما المعابد فقد اقتصرت واجباتها على كونها مراكز لعبادة الآلهة. وقد تغير مركز الحاكم إلى درجة لم يعد يميز فيها. فإن فكرة تقديس الملك كانت غريبة بالنسبة للآموريين، لذا كانت بعيدة عن الآموريين الذين إغتصبوا عروش بلاد وادي الرافدين وعن السلالات التي أسسوها. ولا نجد خارج إيسن إلا أمثلة منفردة عن تقديس الملوك، وأينما نجدها، فيبدوا أنها كانت تتظاهر بالأشياء القديمة أكثر من كونها عادة حيّة. فالترانيم الملكية، وهي القصائد التي كانت توجه إلى الملك–الإله، استمرت في عهد سلالة بابل الأولى(سمسو– إيلونا)، ولكنها تغذت على صيغ الماضي الأدبية كإنعكاس ضعيف للشعر السومري

التسلسل التاريخي للعصر البابلي:

إن التسلسل التاريخي لهذا العصر يعتمد على إطار زودتنا به جداول الملوك الخاصة بـ(إيسن و لارسا وبابل) وكذلك تاريخ السنين التي أُستخدمت من قبل هذه السلالات الثلاثة. ففي إيسن، أعقب لبت –عشتار عشرة ملوك آخرون(١٩٢٣ –١٧٩٤ ق.م). وتبدأ سلالة لارسا، إستناداً إلى جداول ملوكها، بالملك نابلانم(٢٠٢٥–٢٠٠٥ ق.م)،غير أن السلالة لم تحصل على أهمية كبيرة حتى عهد گونگونم(١٩٣٢–١٩٠٦ق.م) الذي أعقبته سلسلة من الملوك مؤلفة من تسعة ملوك(١٩٠٥–١٧٦٣ ق.م) وتبدأ سلالة بابل الأولى بالملك سومو– أبوم (١٨٩٤ – ١٨٨١ ق.م) وتنتهي بملكها الحادي عشر سمسو– ديتانا(١٦٢٥– ١٥٩٥ق.م).

يمكننا من خلال حالات التعاصر وذكر أحد الملوك لعلاقته مع ملك أخر أن نضع في هذا الإطار عدداً من حكام الدول الأخرى على الرغم من أننا لا نستطيع أن نؤرخ الأحداث في هذه الدول، كما هي الحال بالنسبة إلى الوركاء و إشنونا وفق تسلسل تاريخي محلّي ينقلنا بثقة من جيل إلى آخر. فقد كان شمشي – أدد(١٨١٣–١٧٨١ق.م)، ملك آشور معاصراً لحمورابي، وربما توفى في السنة العاشرة من حكم حمورابي. غير أن تاريخ حكم الحكام المستقلين الأقدم في آشور لا يمكن تثبيته حتى الآن. عموماً لدينا تاريخين حاسمين في بداية العصر البابلي القديم

هما عام ١٧٩٤ ق.م عندما قضت لارسا في عهد ملكها ريم–سن على قوة إيسن وأنهت مملكتها بشكل نهائي. والثاني ١٧٦٣ ق.م. عندما وضعت بابل تحت حكم حمورابي نهاية لاستقلال لارسا.

قبل أن نتفحص الأحداث المهمة في هذا العصر نشير إلى قضيتين هما:

١.علاقة البدو بالسكان المستقرين في بلاد وادي الرافدين، فتكاد لا توجد أية فترة أخرى في تاريخ هذا البلد تحتل مشكلة البدو مثل هذه الأهمية في المصادر المعاصرة.

٢.إن عرض تاريخ كل من السلالات المحلية برواية تفصيلية، ليس كافياً. فإذا أمكن الحصول على نظرة شاملة للوضع السياسي في وادي الرافدين، فأنه يمكننا فهم الأحداث.

المحاضرة الثالثة عشرة

الآموريون :

ظهر مصطلح (مارتو= MAR–TU) باللغة السومرية و(آمورو=Amurru) في اللغة الأكدية، في نصوص اللغتين مرتبطا باستخدامين مختلفين، الأول(مارتو) كان جغرافياً، كدليل على إحدى جهات العالم الأربع وهي جهة الغرب، والثاني(آمورو) كان أنثروبولوجياً (عرقياً)، يعود إلى فئة معينة أو مجموعة من الشعوب التي تقطن خارج نطاق بلاد سومر وأكد، وتحديداً إلى الغرب منها.

والتصور العام لمركز هذه الشعوب كما هو متعارف عليه اليوم لدى معظم الباحثين يقع في شمال بادية الشام في منتصف منطقة غرب الفرات، وتشمل المنطقة الواقعة بين نهر الفرات و شاطيء البحر الأبيض المتوسط الشرقي. ووفقاً لما جاء في النصوص المسمارية فان هؤلاء كانوا من البدو، وكان ينظر إليهم من قبل سكان المدن الرافدينية نظرة إحتقار ودونية، إذ إعتبروهم شعوباً همجية وقاسية، ويصفهم أحد النصوص بأنهم (شعب مخرب متسم بالعنف... وشعب لا يعرف القمح) وهذه الإشارة هي علامة على البربرية المطلقة في رأي الفلاحين سكان المدن. وتصفهم أحد الأساطير بالآتي:

(ساكن الخيمة يصارع الرياح والمطر،
هو الذي ينقب عن نبات الأرض عند سفح التل،
وهو الذي لا يعرف كيف يثني ركبته (يبدي الاحترام للسلطة)،
وهو الذي يأكل الطعام دون طهي،
وهو ذلك الشخص الذي لم يكن له بيت طوال حياته،
والذي ليس له مدفن عند مماته،
والذي لا معرفة له بشيء)

وربما جاءت هذه النظرة إليهم نتيجة تسربهم على المدن الرافدينية بحثاً عن عمل، أو لأنهم كانوا غزاة يعترضون قوافل التجار. وقد كان غزو هذه المجموعات البدوية واستقرارها وما يزال اليوم عملية معقدة من التفاعل بين المجتمعات المستقرة والقبلية، أُسيء فهمها غالباً. ومما لا شك فيه أن هذه الشعوب غزت الأراضي المستقرة أحياناً، وتصفهم أسطورة سومرية، بأنهم(يحومون حول أسوار أوروك مثل أسراب الطيور). وإن إتخذت غزواتهم شكل غارات. وأقنع العوز أو الفقر الشعوب البدوية بالبحث عن عمل في الحقول أو كمرتزقة مأجورين، كما تشير إلى ذلك النصوص المعاصرة مراراً. ويبدو أن آخرين اختاروا دور المرتزقة وكانت أجورهم تتضمن منحهم قطع أراضٍ، فضلاً عن غنائم من الحملات العسكرية التي يشتركون فيها. غير أن مجموعات البدو، وأحياناً قبائل كاملة، اكتسبت بتلك الوسيلة ليس طرق الحياة المستقرة لحمايتها فحسب، بل وكذلك لغتهم وحضارتهم أيضاً. ولا يوجد بلا شك طريق مباشر من دور البدوي الحقيقي إلى دور رئيس الدولة. وكان أفراد تلك المجموعات، الذين أصبحوا سكان مدن حقيقيين، قد أمضوا بعض الوقت في المرحلة المتوسطة المتمثلة بالاعتماد على جيرانهم الزراعيين المستقرين. كما أن بعض القبائل السامية الغربية كانت تؤدي دورها كقبائل رعوية مهاجرة تخدم الحكام المحليين، كما حصل مع حكام ماري، الذين كانوا من القبائل الآمورية أيضاً. يبدو أن أنماط الهجرة القبلية، والهيكل القبلي في الواقع تتفق اتفاقاً وثيقاً مع الأنماط المعروفة بين البدو الحديثين. عموماً كانت القبائل البربرية البدوية تتسلل مرة بعد أخرى خلال آلاف السنين وتستولي على مراكز بلاد سومر المستقرة، ولا يوجد سبب للإفتراض بأن مثل هذا لم يحدث في كل مراحل التاريخ بدءاً من الألف الرابع ق.م وحتى مراحل متأخرة. يرجع أقدم لهذه الأقوام إلى حوالي ٢٦٠٠ ق.م. في نصوص من مدينة فارة (شروباك)، واستمرت تحركاتهم لفترة طويلة وتركت آثاراً واضحة في مختلف مظاهر المنطقة الحضارية والسياسية والدينية والاجتماعية، واستقر هؤلاء المهاجرون الجدد في عددٍ من المراكز الحضارية القديمة وأسسوا ممالك مختلفة فيها. وتكلم الآموريون إحدى لهجات اللغة الأكدية، وبذلك فأن لغتهم تتبع عائلة اللغات السامية الغربية، وبتحديد أدق الشمالية الغربية. ومن أشهر قبائلهم قبيلة (يموت- بعل) التي استوطنت في مناطق شرقي بلاد وادي الرافدين قرب منطقة حمرين، وكثيراً ما كان إسمها مرادفاً للآموريين، وبسبب موقعها هذا فأنها كثيراً ما خضعت لقوة العيلاميين السياسية، إلا أنها مع ذلك كانت قد أسست سلالة (لارسا) في زمن شيخها(كودور- مابك) الذي نصب ولديه ورد- سن (١٨٣٤-١٨٢٣ق.م.) و ريم- سن (١٨٢٢- ١٧٦٣ ق.م.) ملكيين متعاقبين عليها. وقد أطلق على (كودور- مابك) لقب (أبو الآموريين) أو(شيخ الآموريين)، ولقب كذلك (أبو يموت- بعل) ويعتقد أن هذه المنطقة تقع إلى الشرق من نهر دجلة وتمتد حتى منطقة (بوشتي كوة) الإيرانية، وربما تمتد حدودها لتشمل مدينة لارسا. ومن القبائل الأخرى قبيلة (بني اليمين) وهي من القبائل التي دخلت بعد سقوط

سلالة أور الثالثة. وكانوا كثيراً ما يغيرون على المناطق المتحضرة غربي بلاد وادي الرافدين، وانتشرت على طول نهر الفرات وكانت مراكزهم الرئيسة في منطقة حران. وهنك قبيلة ثالثة هي (يخروروم أو يحروروم) وكانت تسكن منطقة دجلة الوسطى ما بين الزاب الأسفل و ديالى. ومن القبائل الأخرى قبيلة (سوتو) التي استوطنت مناطق قرب الفرات الأوسط في السهوب السورية. وقبائل (خانين أو حانين) التي استوطنت عانة في منطقة الفرات الأوسط وحتى البليخ في سوريا وأعالي الخابور. رغم أن سقوط سلالة أور الثالثة يؤشر نهاية الكيان السومري كوحدة سياسية متميزة مستقلة، إلا أنه من الخطأ الحديث عن إندحار السومريين. فليس هناك ما يشير إلى وجود صراع قومي بين السومريين والساميين، وإن الأحداث السياسية التي وقعت في تلك الفترة كانت من نتائج وليس أسباب التغيرات الاجتماعية والثقافية التي ظهرت آنذاك بشكلٍ جلي، رغم أنها كانت قد بدأت قبل ذلك بعشرات بل بمئات السنين. عموماً فأنه قبل سقوط سلالة أور الثالثة بفترة قصيرة تمكن عدد من حكام المدن من الحصول على الاستقلال وكان من بينهم حاكم مدينة أشنونا على نهر ديالى وكذلك حاكم مدينة(الدير) قرب الحدود العيلامية، غير أن الحاكم الذي تمكن أخيراً من السيطرة على البلاد، ولو لفترة مؤقتة، والذي أُعتبرت سلالته من بعض الأوجه الوريثة الشرعية لسلالة أور الثالثة، إنه (إشبي- أرّا) حاكم مدينة (إيسن) وتعرف آثارها بإسم (إيشان بحريات) وتقع على بعد حوالي ٢٠ كم جنوب مدينة عفك و٤٠ كم إلى الجنوب الشرقي من محافظة الديوانية. نقبت فيها بعثة جامعة بنسلفانيا- فيلادليفيا، ومن ثم بعثة ألمانية في مطلع القرن العشرين وغيرها من البعثات الأجنبية، واستمرت حتى عام ١٩٨٦حكم (إشبي- أرّا) مدينة إيسن في الفترة من ٢٠١٧-١٩٨٥ ق.م. ويبدو أنه كان قائداً عسكرياً آمورياً من مدينة ماري، وربما يكون قد عمل في خدمة آخر ملوك سلالة أور الثالثة (إبي – سن)، إذ يعتقد أنه كان قائداً لقوات الملك الشمالية، وربما يكون قد أغتنم فرصة الإضطرابات التي ألمت بالدولة السومرية، فأصبح منافساً لملك أور منذ السنة العاشرة أو الحادية عشرة لحكم إبي- سن. وأستقل عنه وأسس سلالة حاكمة وكانت عاصمته الجديدة هي إيسن والتي كانت بلدة غير مهمة، عموماً حكمت سلالته بدون معارضة خطيرة طيلة المئة عام اللاحقة. أتبع الملك إشبي- أرّا والملوك الذين خلفوه في وجهات النظر والسياسات الإدارية ما كان متبعاً في أور على نحوٍ دقيق. ورغم أن اللغة الأكدية أصبحت لغة الكلام السائدة حتى في أور إلا أن ملوك إيسن استمروا يستعملون اللغة السومرية في الوثائق الرسمية، ورعوا مدارس النساخ التي وصلت تدريس اللغة السومرية. وفي الواقع بقيت السومرية تدرس في المدارس البابلية، وبقيت تستعمل للأغراض اولقانونية والدينية طيلة نحو ألفي عام ولكنها لم تكن اللغة الرسمية لأية سلالة حاكمة بعد سلالة إيسن. بعد عدة أعوام من سقوط أور نجح إشبي- أرّا في طرد العيلاميين وسيطر بعد ذلك على المدن السومرية القديمة في الجنوب، فضلاً عن وسط بلاد بابل. وأعاد إبنه (شو- ايليشو ١٩٨٤-

١٩٧٥ ق.م) تمثال إله (القمر= سن) المسروق من أور، ورغم أنه حكم والملوك الذين جاءوا بعده من إيسن، إلا أنهم فعلوا ذلك متخذين لقب (ملك أور) القديم ذي الهيبة الكبيرة. ساد السلم وانتشر الازدهار في بلاد بابل، وأُلفت بعض أهم الأعمال الأدبية في العالم القديم كما وضعت النسخة الأخيرة من قائمة الملوك السومريين في ذلك الوقت، بهدف إضفاء الصفة الشرعية على إدعاء إيسن بأنها ترث من أور سلطة الإله أنليل الحقيقة والصحيحة. وفي وقت معاصر لقيام سلالة إيسن قامت سلالة أخرى في مدينة لارسا، والتي تعرف بإسم (تل السنكرة) وتقع على بعد ٣٧ كم شمال غرب الديوانية وحوالي ٧٠ كم إلى الشمال الغربي لمدينة الناصرية. وكان أول من قام بالتنقيب فيها لوتس في عام ١٨٥٤ ونقب بها الفرنسي أندريه بارو عام ١٩٣٣، واستمرت الحملات حتى ثمانينات القرن العشرين بمراحل مختلفة. وقد قام أحد شيوخها وهو (نُبلانُم) بتنصيب نفسه حاكماً في حوالي (٢٠٢٥- ٢٠٠٥ ق.م)، لذلك عرف القسم الأول من العصر البابلي القديم بإسم عصر إيسن – لارسا، نسبة إلى السلالتين، رغم وجود دويلات مدن أخرى ظهرت فيها سلالات حاكمة منها مملكة أشنونا في ديالى. فيما يتعلق بالسلالة التي حكمت في لارسا فأنها قد ازدهرت في ظل ملكها الخامس(گنگونوم ١٩٣٢-١٩٠٦ ق.م)الذي كان من أهم إنجازاته إلحاق مدينة أور التي كانت تتبع إيسن، وبذلك سيطرت على تجارة الخليج المهمة التي يبدو أنها وهنت منذ سقوط أور. إن عدم وجود صراع مكشوف بين المدينتين واضح من تقاليد منصب كبيرة الكاهنات في معبد إله القمر في أور، إذ بقيت إبنتا (إشم- داگان ١٩٥٣ -١٩٣٥ ق.م) و(لبت-عشتار ١٩٣٤-١٩٢٤ ق.م) ملكي إيسن في المنصب أثناء حكم (گنگونوم)، وقدم مغتصب عرش إيسن (أور- نينورتا ١٩٢٣ -١٨٩٦ ق.م) بعد لبت – عشتار هدايا في أور عندما كانت المدينة تخضع لسيطرة لارسا. ولقب گنگونوم نفسه (ملك سومر وأكد) و (ملك أور) وبذل هو ومن خلفه من ملوك جهودهاً كبيرة لتحسين مركز لارسا السياسي والاقتصادي. كانت المياه أحد أهم مشاكل هذه المملكة، فقد أشارت نقوشها الكتابية إلى سلسلة من مشاريع الري، ومع هذا فأن الحصول على المياه كان مشكلة مهمة تواجه الملوك اللاحقين جميعاً في العصر البابلي القديم، غير أن مشاكل لارسا أصبحت شديدة التعقيد على نحوٍ غير عادي، ويبدو أن السبب كان قيام عدو لم يحدد بسد القناة الرئيسة. وعندما إستولى على الحكم (نور -أدد ١٨٦٥ -١٨٥٠ ق.م)، وهو أحد أبناء الشعب، فأنه دمر السد الذي كان يسبب المشكلة. وكان إزدياد الصراع مع مدينة إيسن، بسبب إزدياد نقص المياه أرغم الملك (سن- إدينام ١٨٤٩- ١٨٤٣ ق.م) إبن الملك نور- أدد ، على إتخاد إجراءات ربما اتخذها أول مرة أنتمينا ملك لگش(٢٤٠٤-٢٣٧٥ ق.م) إذ عمق مجرى نهر دجلة وجلب (مياه دائمة ووافرة) من دجلة إلى لارسا، حسب إدعائه. ومن الممالك المهمة في هذه الفترة مملكة أشنونا، التي سميت بهذا الإسم نسبة إلى عاصمتها مدينة أشنونا، التي تعرف بقاياها بتل أسمر وتقع في

منطقة خصبة في المثلث الكائن بين ديالى ودجلة، وتبعد نحو ٩٠ كم شمال شرق بغداد. ونقبت في مدن هذه المملكة بعثات مختلفة أشهرها البعثة الأمريكية المرسلة من المعهد الشرقي برئاسة الآثاري الشهير هنري فرانكفورت منذ عام ١٩٢٩ وحتى عام ١٩٣٦. فضلاً عن تل أسمر ضمت عدة مدن منها تل خفاجي التي تقع على الضفة اليسرى لنهر ديالى، وتل اشجالي الذي يقع قرب تل خفاجي، فضلاً عن تل حرمل[حرمل إسم حديث ينسب إلى نبات الحرمل] (شادبوم = وهو إسم بابلي يعني بيت المال أو ديوان الحساب) وهو من التلال الصغيرة الواقعة في الجنوب الشرقي لمدينة بغداد/ الجنوب الغربي لمنطقة بغداد الجديدة، ويبدوان هذا الموقع كان مركزاً إدارياً للجباية، نقبت فيه الهيئة العامة للآثار للفترة من ١٩٤٥– ١٩٦٢ وكشفت عن ما يقارب من ٥٠٠٠ لوح كتابي مسماري، شملت أصناف مختلفة من المعاملات التجارية والاقتصادية والرسائل والألواح الرياضية. وهناك مدن صغيرة أخرى كانت تابعة لهذه المملكة منها تل الضباعي ويقع في منطقة المشتل وتل محمد في بغداد الجديدة. تحتل هذه المملكة منطقة جغرافية مهمة فهي تقع إلى الشرق من دجلة على الطريق الذي يربط بلاد وادي الرافدين ببلاد عيلام مما جعلها تتأثر بالتيارات الحضارية من المناطق التي تقع شمال شرق بلاد وادي الرافدين، لذا نجد أن كبير آلهة هذه المملكة وهو (تشباك) ربما كان خوري الأصل مشتق من إسم الإله (تشوب)، فضلاً عن العلاقات السياسية والاقتصادية والحضارية مع عيلام. وكانت هذه المملكة أول من أعلن الخروج عن سلطة إبي– سن آخر ملوك سلالة أور الثالثة، عندما توقفت في السنة الثانية من حكمه(٢٠٢٧ ق.م) عن التقويم بسنوات حكمه. ومنذ ذلك الحين اتجهت أشنونا نحو الإستقلال وبناء كيان متميز فأستعيض عن التقويم السومري بأسماء الأشهر بتقويم محلي، وجرى إستبدال اللغة السومرية باللغة الأكدية في الكتابات الرسمية، كما جرى تحويل أحد المعابد الذي بني في العاصمة لعبادة شو– سن ملك أور الثالثة إلى بناية للإفادة منها للأغراض الدنيوية. وقد حاول ملوكها الأوائل أن يوسعوا نفوذهم خارج الحدود الأصلية للملكة فاحتلوا كل السهل في منطقة ديالى السفلى وربما وصلوا شمالاً حتى كركوك. لكن المملكة بعد ملكها الرابع(بلالاما) ضعفت وتعرضت إلى غزو من ملك الدير(بدرة) كما هزمت في أحد الحروب من قبل أحد ملوك مدينة كيش وخسرت معظم ممتلكاتها. استعادت عافيتها مؤقتاً في زمن ملكها (آبق– أدد ١٨٥٠) وتمكن إبنه وخليفته (ريم – سن) من توسيع رقعة مملكته باحتلال (رابيقوم = قرب الرمادي) على نهر الفرات وآشور على دجلة ومناطق في سهل أربيل وأخرى في مناطق الخابور. وقد قضى عليها حمورابي في عام ١٧٦١ ق.م بعد تحالف مدن بابل و لارسا وآشور وماري. عموماً اتسمت حضارة هذه المملكة بالطابع المحلي المميز، الذي لا يبتعد كثيراً عن الطابع الحضاري الرافديني.

تمتعت مدينة ماري(تل الحريري) التي تقع على نهر الفرات على بعد ١٠ كم تقريباً شمالي(البو كمال) في سوريا، أي في شمال غرب بلاد وادي الرافدين، بموقعٍ متميز فهي حلقة إتصال بين الخليج والبحر الأبيض المتوسط. ويرجع تاريخ إستيطانها إلى عصر جمدة نصر، كما إزدهرت فيها الحضارة السومرية في عصر السلالات المبكرة، ومن ثم أصبحت تحت النفوذ الأكديين الذين ضموا شمال سوريا إلى إمبراطوريتهم كما اشرنا. وخضعت أيضاً لدولة أور الثالثة، إذ كانت تابعة لملك أور. وكانت المدينة ذات علاقة وثيقة بالأقوام والقبائل الآمورية، وقد ظهرت فيها سلالة آمورية بعد سقوط سلالة أور الثالثة، وبدأ إزدهارها مع عهد حكم ملكها(يخدن – ليم) الذي يمكن إعتباره المؤسس الحقيقي لهذه السلالة والتي إمتد نفوذها في عهده إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط والمناطق الجبلية في الغرب، وأخضع كذلك الأقوام البدوية التي كانت تنتشر في حول ماري. وإزدهرت هذه الملكة في عهد (زمري– ليم ١٧٧٥ –١٧٦٢ ق.م) الذي استطاع طرد الملك الآشوري، وإقامة حكم مستقل فيها. إمتد نفوذه لمناطق عدة وتحالف مع حمورابي، ونشأت علاقة صداقة وتعاون عسكري بين الملكين إزاء أطماع ممالك عيلام وإشنونا، الذين حاولوا قطع الطرق عن ماري وبابل.

إن الظروف السياسية المتداخلة بين مملكتي إيسن ولارسا والممالك الأخرى والصراعات العسكرية في بلاد بابل، أتاحت لأحد الأمراء الآموريين بالإستقرار في بابل وإقامة دويلة فيها، إنه (سومو– آبوم ١٨٩٤ –١٨٨١ ق.م) الذي لا نعرف إن كان تابعاً في أول أمره لإحدى دويلات المدن قبل إستقلاله في بابل، أم أنه هجم على بابل من الصحراء مباشرة بعد أن حصل على مساعدة من (إيلوشوما) ملك بلاد آشور في تنفيذ مخططاته. وقد حكم هذا الملك حوالي ١٤ سنة في بابل. ومدينة بابل بدأت من قرية صغيرة في عصر السلالات المبكرة، وإنها كانت مدينة تفخر بوجود معبدين على الأقل في زمن الملك الأكدي شار–كالي– شري٢٢١٧ –٢١٩٣ ق.م. وفي عهد ملوك سلالة أور الثالثة كانت المدينة مهمة على نحوٍ كافٍ لجعلها مقر حاكم محلي. وكان إسم بابل= بابيليم في اللغة الأكدية وبابل في التوراة ويعني (بوابة الإله) إعتبره البعض أنه ترجمة لإسم سومري هو (كادينگيرا) وهناك من يرى أن إسم المدينة وجد أولاً في اللفظة الأكدية بابيليم التي يعتقد أنها تهجئة ثانوية طورت وفق تعليل أصل اللفظة من الإسم الأقدم (بابيل) لا يعرف معناها. وبعد فترة طويلة، استعملت صيغة الجمع بابيلاني أي (بوابة الآلهة) ثم استعملت اللفظة في اللغة الإغريقية ومنها جاء الإسم الحديث في اللغة الإنگليزية (Babylon= بابلون). وتنسب الكتابات اللاحقة والمحّرفة بلا شك إلى بابل أهمية مبكرة بوصفها مركزاً دينياً. وكان المعبد المعروف بإسم (إيساكيلا = معبد الإله مردوخ) وهو معبد إله بابل الرئيس موجوداً في عصر سلالة أور الثالثة، غير أن مردوخ لم يحقق هذا المركز البارز في مجمع الآلهة إلا

بعد عدة قرون ويحتمل أن ذلك لم يحدث حتى العصر الكشي أو العصر اللاحقة. أعقب مؤسس سلالة بابل الأولى مجموعة من الملوك يبدو أنهم لم يستطيعوا أن يحافظوا حتى على حدود مدينة كيش القريبة، وكل ما قاموا به حفر بعض القنوات الجديدة. ومع تولي ملكها السادس حمورابي(١٧٩٢ –١٧٥٠ ق.م) كانت بابل ما تزال واحدة من دويلات صغيرة . وتكشف وثائق معاصرة وضعاً سياسياً غير مستقر، إنضمت فيه الممالك المتنافسة إلى تحالفات متغيرة مع إنتقال القوة من مركز إلى آخر. وتوضح رسالة ماري آنفة الذكر هذا الوضع.

لم تكن سنوات حمورابي القليلة الأولى مشجعة. وقد سيطر(ريم– سن١٨٢٢ –١٧٦٣ ق.م) الملك القوي لدولة مدينة لارسا على الجنوب، وهيمنت أشنونا على المنطقة الواقعة شمالي بابل، وحتى نهر الفرات، وفي الشمال كانت آشور في عهد ملكها الداهية شمشي– أدد تزداد نفوذاً، وتسيطر على مناطق واسعة نحو الغرب. ومع مرور السنين قلب هذا الملك دويلة المدينة على مركز إمبراطورية كبرى بفضل نشاطاته السياسية والعسكرية، وكانت نجاحاته الإدارية التي أعقبت ذلك موازية لنجاحاته العسكرية، وأحسن ما يمكن التعرف من خلاله على هذه النجاحات هو مجموعة القوانين التي قام بتشريعها، ومراسلاته الكثيرة مع موظفيه في المناطق المختلفة. وقد عمل على توحيد ودمج دويلات المدن الكثيرة من بلاد سومر وأكد في مملكة واحدة، واستخدم في البلاد كلها لغة واحدة للإدارة والعمل ونظاماً قانونياً واحداً، كما يمكن القول إنه جعل للبلاد مجموعة موحدة من الآلهة على رأسها الإله (مردوخ) إله مدينة بابل. إلا أن هذه الإمبراطورية الواسعة لم تدم طويلاً بعد هذا الملك، إذ بدأت أقوام خارجية تهدد بلاد وادي الرافدين، ففي عهد إبن حمورابي (سمسو– ايلونا ١٧٤٩ –١٧١٢ ق.م) قدم جيش(كشي) بهجوم من الحدود العيلامية، إلا أن البابليين تمكنوا من صده. عموماً سقطت بابل في ١٥٩٥ ق.م في زمن آخر ملوكها (سمسو– ديتانا ١٦٢٥–١٥٩٥ ق.م) على يد الملك الحثّي (مرسيليس الأول) رابع ملوك الإمبراطورية الحثيّة، والتي كان موطنها الأصلي في مناطق آسيا الصغرى (تركيا الحالية).إلا أن هذا الملك الغازي سرعان غادر إلى دياره لوجود مؤامرة في قصره، مما أتاح المجال للكشيين لإستغلال هذا الوضع المضطرب.

المحاضرة الرابعة عشر

الاحتلال الاجنبي (الكشيون) :

أصول هذه القبائل غامضة، وربما يكونا قد هاجروا من إيران عبر جبال زاگروس إلى بلاد وادي الرافدين. ولا تعرف عائلتهم اللغوية، وإن كانت بعض خصائص لغتهم تشير إلى أنهم كانوا على علاقة بالأقوام التي تعرف بإسم (الأقوام الهندو– أوربية). ومن المحتمل أن إسمهم مشتق من إسم إلههم القومي (كشو). ويبدو أنهم قد أطلقوا على بابل إسماً جديداً هو (كار – دنياش=

بلاد دنياش)، وكان الآشوريون يسمونها (بلاد الكشيين)، ومن المحتمل أنهم أول من أدخل واستعمل الخيول في بلاد وادي الرافدين، التي شاع استعمالها في السلم والحرب، وربما كانوا قد تعلموا فنون تربية هذه الحيوانات من الأقوام الحثّية والحورية. لم يثبت بعد عدد الملوك الكشيين الأوائل وترتيبهم. وربما كان أول ملك حكم في بابل (آكوم الثاني=كاكريمه) الذي يعتقد أنه كان الملك التاسع في سلالته. ويقال أن هذا الملك أعاد تمثال الإله مردوخ وزوجته بعد ٢٤ عاماً من الأسر(أي في حوالي ١٥٧٠ ق.م). وأشارت نقوشهم إلى أن ملوك الكشيون استطاعوا (مسك يد مردوخ) وهي إشارة رمزية جعلت حكمهم شرعياً في نظر السكان المحليين البابليين،أو على الأقل جعلتهم سلالة تحترم التقاليد البابلية.

يمكن القول أن القرنين السابع والسادس عشر قبل الميلاد شهدا تحولاً سياسياً كبيراً في غربي آسيا وكان الكشيون من الأقوام التي لا تتكلم لغة سامية، فضلاً عن الحوريين والحتيين. وقد بدأ الكشيون بالضغط عمن الشمال على مملكة بابل، التي ضعفت قوتها. ظهر الكشيون في بلاد بابل لأول مرة بوصفهم عمالاً زراعيين. وأستمر تدفقهم السلمي، وأصبحوا يملكون أملاكاً خاصة، ولكن خطرهم العسكري بدأ بالظهور في نهاية حكم الملك (سمسو- ايلونا ١٧٤٩ -١٧١٢ ق.م) و أخيراً أسسوا مملكتهم أو سلالتهم التي عرفت بسلالة بابل الثالثة. رغم أن ملوك هذه السلالة الجديدة لم يكونوا من أصل بلاد وادي الرافدين، إلا أن هناك من لا يعدهم أجانب غزاة، إذ أنهم إمتزجوا إمتزاجاً تاماً في بوتقة حضارة وتقاليدها شأنهم في ذلك شأن أقوام أخرى دخلت بلاد وادي الرافدين. ولم يكتفوا بتبني التقاليد المحلية وحتى الدين، بل كذلك اللغة البابلية.

عموماً لقد أهملت هذه المرحلة من تاريخ بلاد وادي الرافدين إهمالاً شديداً من قبل الباحثين المحدثين، وعذرهم في هذا إن هذه الفترة هي الأقل إثارة في التاريخ البابلي. غير إن الكشيين حكموا لأكثر من أربعة قرون، أي أطول من أية سلالة محلية أو غيرها. وقد برهنوا على أنهم أنجح في حكم سومر من أسلافهم ملوك أكد والعهد البابلي القديم، الأكثر شهرة منهم. واستولوا على أراضي القطر البحري(تعرف أيضاً بسلالة بابل الثانية) بقيادة ملكهم أولام- بوريش في حوالي ١٤٦٠ ق.م. وأصبحت البلاد كلها وحدة سياسية واحدة، ومن المحتمل أنهم أنهوا سياسة الإنفصال في بلاد سومر(دويلات المدن في الجنوب).

ويبدو أن السياسات الداخلية الناجحة على ما يظهر كانت هي السمة المهمة في هذه المرحلة في التاريخ البابلي، ورغم هذا فأن المبادرة السياسية تحولت بعيداً عن بلاد بابل، وإلى خارج بلاد وادي الرافدين لأول مرة. عموماً يعد الكشيون غالباً من المحافظين في مواقفهم وحكموا بلاد بابل (مستقرة) عرفت باعتدالها السلمي ولم يكن فيها ما هو مفعم بالحيوية، سوى مراسلاتها الدبلوماسية. وأدت قلة المصادر، باستثناء المحفوظات الإدارية المهملة، إلى الإهمال عام لهذا العصر في التاريخ البابلي ليس من جانب علماء الآشوريات(مصطلح علماء الآشوريات يطلق

على كل الذين يدرسون الكتابات المسمارية البابلية والآشورية) وحسب، بل كذلك من جانب علماء الآثار الذين مالوا إلى البحث عن مواقع سكنت في فترات تعد عموماً ذات أهمية كبرى. بيد أن الكشيين حكموا بلاد بابل موحدة فترة أطول كثيراً من أية سلالة أخرى في بلاد وادي الرافدين. وبرزت بابل بوصفها المركز السياسي والحضاري للعالم القديم في زمنهم.

وتعرف الفترة سياسياً بازدياد الصراع مع بلاد آشور الذي استمر حتى القرن السابع ق.م. كانت فترة الحكم الكشي فترة تحول إجتماعي إن لم تكن فترة تحوّل حضاري. يختفي الملك بوصفه(مانح القوانين)مع إنتهاء حكم سلالة حمورابي، في حين تكشف (الكودورو= أحجار الحدود)، وهي الجانب المميز من المواد الحضارية الكشية، وجود إدارة تشبه النظام الإقطاعي، وإن كان استعمال هذا المصطلح بالمعنى الضيق للكلمة مضللاً. وكان الموقف إزاء اللغة والأدب متسماً بالتحفظ الشديد. غير إن هذه النزعة المحافظة، عكست بلا شك المحاولة الواعية لسلالة أجنية لكي تصبح بابلية بكل معنى، ولتحافظ على تقاليد الماضي وثقافته. من بين الملوك التي يشار لهم عند الحديث عن الكشيين الملك كرايناش حوالي ١٤١٥-١٣٩١ ق.م الذي يقترن ذكره بذكر رسائل العمارنة، وهي من الوثائق المسمارية المهمة والتي دونت باللغة البابلية كما أشرنا، وهي حوالي ٣٥٠ لوحاً. وفي هذه الفترة تم تبادل الرُسُل بانتظام بين مصر وبلاد بابل. وقد اشتهر هذا الملك بسياساته الداخلية الناجحة.

فقد دحر مملكة القطر البحري، وهذه المملكة كانت قد قامت في مناطق الأهوار واستمرت بالسيطرة على ما كان بعرف ببلاد سومر لمدة مئتي عام، وبعد أن دحر هذه المملكة عمل على وحدة بلاد بابل في دولة واحدة لأول مرة، منذ مئتي عام. ونفذ هو خلفه كوريكالزو الأول حوالي١٣٥٠-١٣٩٠ ق.م. برامج إعمار واسعة في المدن السومرية القديمة. ومن أبرز أعمال الملك الأخير بناء مدينة محصنة تعرف بـ(دوركوريكالزو) أي حصن كوريكالزو، بقاياها الآن تعرف بـ(زقورة عقرقوف) ربما لتكون عاصمة جديدة له، وإن بقيت بابل أهم مدينة في البلاد ومقر الملكية والمركز الديني والسياسي والتجاري الأهم.يبدو أن نهاية هذه السلالة تقترن أيضاً بتدخل العيلاميين، فبعد موت الملك (مردوخ- بلادن١١٧١-١١٥٩ ق.م) تفككت المملكة الكشية بعد أن عانت أولاً من غارة (آشور-دان الأول ١١٧٨- ١١٣٣ ق.م) ملك آشور، ثم من هجوم الملك العيلامي (شوترك-ناخونتي) فتم خلع الملك البابلي الضعيف عن العرش. ويبدو أن الملك العيلامي نصب إبنه كودر- ناخونتي على عرش بابل، والظاهر أنه وفق ما تذكر الأدلة الكتابية قد ارتكب الكثير من الجرائم البشعة ومن المحتمل أن هذه النصوص كتبت من قبل الكشيين الذين صارعوا لسنوات من أجل إعادة عرشهم المغتصب.

وقد نقل مجموعة من الآثار إلى عيلام ومن أبرزها مسلة نرام – سن الشهيرة التي دون الملك شوترك- ناخونتي إنتصاره عليها، والمسلة التي تحمل شريعة حمورابي، ويحتمل إن كليهما

نهب من سبآر ، فضلاً عن آثار أخرى نقلت إلى عيلام منها تمثال الإلهة إنانا إلهة الوركاء الذي إستعاده الملك الآشوري آشور- بانيبال ٦٦٨-٦٢٧ ق.م. كما أنه نقل تمثال الإله مردوخ كبير الآلهة البابلية، الذي بقي في سوسة عاصمة العيلاميين حتى إستعاده الملك نبوخذنصر الأول(١١٢٥- ١١٠٤ ق.م) ملك بابل. عموماً إنتهت فترة حكم سلالة الكشيين بعد مدة حكم دامت حوالي ٥٧٦ سنة وتسعة أشهر وفق مدونات بلاد وادي الرافدين، وهي فترة لم يسبق لها مثيل كما أشرنا، وبها تنتهي المرحلة الثانية من العصر البابلي.

المحاضرة الخامسة عشر

العصر الآشوري القديم(من حوالي ٢٠٠٠-١٥٢١ ق.م):

بلاد آشور:

كانت بلاد آشور في هذه الفترة تحت قيادة زعيم آموري آخر هو(شمشي- أدد ١٨١٤- ١٧٨٢ ق.م). وقبل مواصلة الحديث عن بلاد آشور في هذا الدور الحضاري، سنحاول تتبع تأريخ هذه المنطقة منذ أقدم الأزمان، أي منذ العصور الحجرية القديمة.

تتمثل بلاد لآشور جغرافياً بالجزء الشمالي الشرقي من العراق(المنطقة الجغرافية الأولى)، ويخترقها نهر دجلة من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. ومن الصعب وضع حدود ثابتة لهذه البلاد نظراً لتغيرها المستمر تبعاً لتغير القوى السياسية وقوة وضعف الدولة الآشورية والدول والبلدان المجاورة. فيعتبر البعض الخط السابع والثلاثين شمالاً خطاً وهمياً للأراضي الواقعة ضمن بلاد آشور في الشمال بينما يعتبر نهر العظيم الحد الجنوبي لها. ويحد بلاد آشور من الشرق والشمال الشرقي سفوح الجبال بينما لاتوجد حدود طبيعية من جهة الغرب حيث تقع منطقة الجزيرة.

وأمتدت رقعة الدولة الآشورية خلال العصور التأريخية المختلفة، ولاسيما في القرن التاسع قبل الميلاد، لتشمل معظم أنحاء الشرق الأدنى القديم، بما في ذلك بلاد بابل وسورية والجزء الشمالي من مصر وبعض أجزاء آسيا الصغرى وبلاد عيلام، بينما تقلصت الحدود في أحيان أخرى لتشمل بلاد آشور الأصلية فقط.

تمتاز بلاد آشور الأصلية بتموج معظم أراضيها، وتتخللها السهول الفسيحة، وتتوفر فيها المياه، إذ يخترقها الزابان الأعلى والأسفل، فضلاً عن نهر دجلة، كما تهطل الأمطار الموسمية بمعدل يساعد على نمو مختلف الغلال. وتمتاز تربتها بصورة عامة بخصوبتها وقلة مشاكل أملاحها، الأمر الذي ساعد على إنتعاش الحياة الزراعية في المنطقة، مما كان له الأثر الكبير في نشوء أولى المستوطنات الزراعية فيها.

أصل الآشوريين:

الآشوريون فرع من الأقوام السامية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية متجهة شمالاً إلى بلاد سوريا وفلسطين والعراق. ولا يعرف بالضبط متى كانت هجرة هذه المجموعة وما الطريق الذي سلكته، ويعتقد أنها لم تصل مباشرة لشمال العراق وإنما إستقرت في بادية العراق الغربية وأطراف الجزيرة السورية ثم نزحت نحو المناطق الأهلة بالسكان كما شرحنا ذلك في موضوع الساميين. ولغتهم الآشورية هي جزء من اللغة الأكدية كما أشرنا في موضوع اللغات السامية. ودونت كبقية اللهجات الأكدية بالخط المسماري. وهنا لابد من الإشارة إلى أن اللغة الآشورية في بعض قرى الشمال هي ليست من بقايا اللهجة الآشورية بل إنها لهجة سريانية محورة ومتفرعة أصلاً من اللغة الآرامية، وإن ما فيها من تشابه مع اللهجة الآشورية هو كالتشابه الموجود بين اللغة العربية والعبرية، وسبب ذلك هو الأصل المشترك لهذه الشعوب وهو الجزيرة العربية.

الأدوار التي مرت بها بلاد آشور:

مرت بلاد آشور منذ أقدم العصور وحتى نهاية الدولة الآشورية الحديثة بعدة أدوار يمكن تقسيمها إلى خمسة أدوار:

١. عصور ما قبل التأريخ : وتشمل العصور التي مرت على بلاد آشور منذ أقدم الأزمنة التي إستقر فيها الإنسان في المنطقة وحتى بداية العصور التأريخية في أواخر الألف الرابع ق.م.

٢. عصر التبعية السومرية- الأكدية: ويشمل العصور المقابلة لعصور فجر السلالات والعصر الأكدي وعصر سلالة أور الثالثة في الجنوب، والتي كانت فيها بلاد آشور خاضعة للنفوذ الحضاري والسياسي لدول الجنوب.

٣. العصر الآشوري القديم : ويبدأ من حوالي ٢٠٠٠ ق.م.وحتى ١٥٠٠ ق.م. أي أنه يقابل العصر البابلي القديم الذي نتحدث عنه الآن.

٤. العصر الآشوري الوسيط : ويبدأ من حوالي ١٥٠٠ ق.م.وينتهي بحدود ٩١١ ق.م. وهو تأريخ إعتلاء الملك أدد- نراري العرش الآشوري. ويقابل الجزء الأكبر منه العهد الكشي أو ما يعرف بالعصر البابلي الوسيط.

٥. العصر الآشوري الحديث: ويبدأ من ٩١١ ق.م. وينتهي بسقوط نينوى العاصمة الآشورية في ٦١٢ ق.م. على يد الأقوام الميدية والكلدانية، ويشمل عهد الإمبراطوريتين الآشورية الأولى والثانية.

فيما يتعلق بالمرحلة الأولى فإنها تشمل ما سبق أن أشرنا إليه في العصور الحجرية القديمة والعصر الحجري المعدني وأطواره المعروفة. ولا نعرف عن سكان هذه المراحل لإنعدام التدوين في تلك الحقب المتطاولة في القدم. أما في المرحلة الثانية وهي المرحلة التي تبدأ من بداية العصور الكتابية وحتى سقوط سلالة أور الثالثة، فإن مدن الشمال وخاصة نينوى وآشور وماري

فأنها كانت تحت سيادة الدولة الأكدية ومن ثم دولة أور الثالثة. أي انها كانت تعيش بإطار سياسي أجتماعي إقتصادي مقارب لمدن الجنوب. ففي ظل الدولة الأكدية الموحدة كانت مدينة آشور من المدن المهمة ذات المركز الإداري المميز وربما إعتمد الحكام الأكديين على أبناء آشور في إدارة شؤون البلاد. ويبدو أن التأثيرات الثقافية الأكدية كانت قوية ومؤثرة إلى درجة دفعت بعض الباحثين إلى القول بأن الآشوريين الأوائل كانوا من أصول أكدية، وهذا واضح في جانب اللغة، واحتفظ الآشوريين بذكرى طيبة للأكديين في المراحل التأريخية اللاحقة، إذ إن أعظم الملوك الآشوريين تسموا بأسماء أكدية كما فعل سرجون الثاني الآشوري في الإمبراطورية الحديثة، فضلاً عن رغبتهم في مسايرة الروح العسكرية الأكدية وتبني النظام المركزي الشمولي الذي كان متبع من كلا الدولتين. وبعد سقوط الدولة الأكدية وتدمير مدنها أصاب المدن الآشورية ما أصاب قريناتها الأكدية، ثم استقر بها المطاف بالتبعية لدولة أور الثالثة. وظلت خاضعة لها سياسياً حتى سقوطها على يد الأقوام العيلامية من الشرق والآمورية من الغرب. ويبدو أن آشور إستغلت فرصة الإرتباك الذي حل ببلاد بابل بعد سقوط سلالة أور الثالثة وقيام عدد من دويلات المدن في معظم بلاد وادي الرافدين، فانسلخت عن سيادة دول الجنوب وأقامت لها سلالة محلية أعتبرت بداية للعصر الآشوري القديم. ويمتد هذا العصر كما أشرنا من حوالي ٢٠٠٦ ق.م. وحتى حوالي ١٥٢١ ق.م. ويمكن تميز ثلاثة أطوار في هذا العصر، يبدأ الأول من إستقلال آشور وحتى قيام سلالة شمشي- أدد، ويشمل الثاني سلالة شمشي – أدد نفسها من حوالي ١٨١٣ –١٧٤٠ ق.م. بينما الثالث يستمر حتى نهاية هذا العصر.

معلوماتنا عن الطور الأول قليلة وغامضة، لا تعدو في بعض الأحيان معرفة أسماء الملوك والحكام، وكذلك لا نعرف هوية السكان القدامى. ويبدو أن الآشوريين شعروا في زمن إيلوشوما (١٩٦٢-١٩٤٢ق.م.) بالقوة وضرورة التوسع والسيطرة على بعض الطرق التجارية المارة ببلاد بابل.

ومن هذه الفترة هناك معلومات غزيرة عن العلاقات التجارية بين بلاد آشور وبلاد الأناضول أمكن الحصول عليها من خلال التعرف على مجموعة كبيرة من النصوص المكتشفة في منطقة كابدوكيا شرقي الأناضول في الموقع المعروف حالياً (كول تبه) شرقي مدينة كيسري التركية، حيث تشير النصوص إلى وجود مراكز تجارية لمجموعة من التجار الآشوريين تقطن هناك. وهنا نتذكر حملة سرجون الأكدي لنصرة بعض التجار الأكدين في نفس هذه المنطقة. وكان للمستوطنات التجارية من هذا النوع الأثر الكبير في توجيه السياسة العامة الآشورية المعتمدة على الموارد الإقتصادية والثروات الطائلة التي كانت تدرها عليها تجارة هذه المستوطنات.

وكانت بلاد آشور تقوم بدور الوسيط بين بلاد بابل والأناضول. وقبل البدء بالحديث عن الطور الثاني نود أن شير إلى قضية التسمية، إذ لم يكن إسم آشور معروفاً في القسم الشمالي

من بلاد وادي الرافدين قبل الألف الثالث، بل كان يطلق على السكان القاطنين في المنطقة إسم (سوباريين) بينما أطلق على البلاد إسم بلاد (سوبارتو) أو (شوبارتو) وعند مجيء الآشوريين إلى المنطقة، غلب إسم الآشوريين وبلاد آشور وإنصهر السوباريين مع الآشوريين بينما نزح البعض منهم إلى مناطق الجبال. ينسب إسم الآشوريون إلى إسم أول مراكزهم الحضرية (آشور) الذي أصبح فيما بعد عاصمة لدولتهم، وتقع بقايا مدينة آشور قبالة قلعة الشرقاط في الطريق القديم الذي يربط بين بغداد والموصل. وقد أطلق إسم آشور على الإله القومي للآشوريين أيضاً. ولا يعرف على وجه التأكيد أيهما كان أصل الآخر، إسم الإله أم إسم المدينة. جاءت كلمة آشور في النصوص المسمارية مكتوبة بهيئة (آ– أُسر= A–Usar) والتي تبدو وكأنها كتابة سومرية رمزية. غير أن الكتابة المألوفة الأخرى جاءت على هيئة (آ– شر= A–shur) تتبعها العلامة الدالة على المدن (Ki). وترقى أقدم إشارة إلى هذه التسمية إلى القرن السابع عشر ق.م من مدينة نوزي. وفي العهود الآشورية غلب استعمال التسمية بتضعيف حرف الشين فأصبح الإسم يكتب بهيئة (آش– شر=Ash– Shur) تتبعه العلامة الدالة الخاصة بالبلدان والأقاليم(مَت=Mat) وعند الإشارة إلى الشخص الآشوري غالباً ما تضاف ياء النسبة المضاهية لياء النسبة العربية إلى نهاية الإسم فيقال (آشوري).

نود أن نشير هنا إلى أن التأريخ الآشوري ينفرد باستمرارية التعاقب على العرش لما يقرب من ألفي عام، منذ أواسط الألف الثالث تقريباً حتى ٦١٢ ق.م، ولكن هذا لا يعني أن الملوك الآشوريين المئة والسبعة عشر كانوا من سلالة واحدة وإنما كانوا من عدة سلالات ترتبط في أغلب الأحوال بصلات قربى. وكانت هناك حلات أُسست فيها سلالات لا تنتمي إلى العائلة الملكية ولكن مؤسسيها من القادة الكبار في الدولة مثل حالة سرجون الثاني كما سنشير إلى ذلك لاحقاً. وفي بعض الحالات يحاول مؤسس السلالة الجديدة أن يجد لنفسه صلة بخط التسلسل الملكي كما فعل التاسع والثلاثون، شمشي– أدد، إذ نسب نفسه إلى الملك إلا– كبكبا الذي سبقه بأمد طويل وكان تسلسله الخامس والعشرين. ويمكن تتبع توارث العرش الآشوري على النحو الآتي :

١– الملك السادس عشر أوشبيا: توارثت ذريته العرش بعد إبنه لغاية الحفيد العاشر، وهو الملك السابع والعشرون صوليلي.

٢– الملك الثلاثون بوزر– آشور الأول: توارثت ذريته العرش حتى الحفيد السابع ، وهو الملك الثامن والثلاثون إيريشم الثاني.

٣– الملك التاسع والثلاثون شمشي –أدد الأول: خلفه على العرش إبنه أشمي – داگان الأول.

٤- الملك السابع والأربعون أداسي: خلفه على العرش إبنه بيلو -باني ثم الحفيد الأول والثاني والثالث. وبعد ذلك عاد العرش إلى إبنه بازيًا.

٥- الملك الثالث والخمسون لولايًا: وقد أستمر العرش في العائلة حتى الملك الحدي والثمانون أنليل -كودري- أوصر.

٦- الملك الثاني والثمانون ننورتا-أبل-أيكور: أسس سلالة جديدة توارث العرش فيها الإبن عن الأب حتى الملك السابع والثمانين تگلات-بلاصر الأول، ثم يستمر تداول الحكم في هذه السلالة بين الأبناء والأخوة حتى الملك شلمنصر الخامس ذو التسلسل ١٠٩.

٧- الملك العاشر بعد المئة سرجون الثاني: أسس سلالة جديدة حكمت ما عرف بالإمبراطورية الآشورية الحديثة، وخلفه إبنه سنحاريب(١١١) ثم حفيده أسرحدون (١١٢) وإبن حفيده آشور -بانيبال (١١٣). وأعقب الأخير إبنه آشور -أيطيل-إلاني(١١٤)، وبعد سين-شومو-ليشر(١١٥) إعتلى إبن أشور بانيبال الآخر، سين شار-إشكن(١١٦) العرش الآشوري، وهو الذي سقطت نينوى في عهده عام ٦١٢ ق.م. وهناك من الباحثين من يضيف الملك الأخير(١١٧) الذي حكم من حران وكان من أعضاء الأسرة الملكية.

وبالعودة لذكر الملك شمشي- أدد، نشير إلى أنه إنطلق من مدينة ترقا(تل العشارة) الصغيرة القريبة من ماري عبر طرق ملتوية نحو آشور، وأغتصب العرش فيها، وحالما تولى العرش (العهد الآشوري القديم) حدثت ثورة في مدينة ماري ربما بتأثير منه، وقتل في هذه الثورة الملك (يخدن- ليم ١٧٤٥ ق.م) وهرب ولي العهد (زمري- ليم ١٧١٦- ١٦٩٥ ق.م) إلى مملكة (يمخاد) في منطقة حلب، فتمكن شمشي- أدد من السيطرة عليها وتنصيب إبنه الأصغر (يسمح- أدد) نائباً للملك عليها. وكما أشرنا فإن هذه السلالة تشكل الطور الثاني من العصر الآشوري القديم. وحالما سيطر هذا العاهل على مقاليد الحكم سيطر على ماري كما أنه بسط نفوذه على المنطقة الشرقية من مملكة آشور، فقد قاد عدة حملات على القبائل الگوتية والتركية واللولبية. وإمتدت علاقته ببلاد سورية، ولا سيما مملكة يمخد(حلب) وكركميش وقطنا. وكانت علاقته عدائية مع يمخد، بينما كانت مع المدينتين الأخرين كانت وطيدة بحكم المصالح التجارية المشتركة. أما العلاقة بمملكة أشنونا فأنها كانت راجحة لمصلحته، وعلاقته كانت ودية بحمورابي الذي عاشره في آخر عشر سنوات من حكمه. وقد أعتمد هذا الملك على أبنائه في حكم الأقاليم الشرقية والغربية التابعة له.

عموماً تشير رسائله إلى أبنائه إلى مدى إهتمامه بإدارة المقاطعات وتدخله بكل صغيرة وكبيرة من التفاصيل. كما يستشف من هذه الرسائل عن حسن إدارة إبنه الأكبر أشمي-داكان مقارنة مع أخيه الأصغر يسمخ – أدد. مات هذا الملك في عنفوان قوته العسكرية وتعتبر سنة وفاته من الأحداث التي يؤرخ بها. وحكم بعده إبنه الأكبر أشمي -داكان الأول(١٧١٧- ١٦٧٧

ق.م) الذي كان نائبه على آشور حوالي ٤٠ سنة، وظل يحكم البلاد حتى تحت سيطرة حمورابي، ورغم قوته إلا أنه لم يحافظ على مملكة أبيه، فأستقلت بعض المقاطعات الواقعة على الحدود، بينما عملت مملكة أشنونا ويمخد بالعمل سوياً على تقويض حكم الدولة الآشورية. وعاد زمريليم إلى مدينته ماري وطرد يسمخ – أدد في ظروف غامضة، وتقلص نفوذ أشمي– داكان وأقتصر على حدود بلاد آشور الأصلية. ومن ثم إنضوت تحت نفوذ الدولة البابلية في ظل ملكها حمورابي وإنتهى بذلك العصر الآشوري القديم.

المحاضرة السادسة عشر

العصر الآشوري الوسيط (١٥٢١-٩١١ ق.م)

يقابل العصر الوسيط العصر الكشي، ويبدأ من بداية حكم بوزور– آشور الثالث في حوالي ١٥٢١ ق.م. وينتهي بحدود ٩١١ ق.م. مع بداية حكم الملك أدد– نراري الثاني كما أشرنا سابقاً. لقد تقلبت أوضاع البلاد كثيراً خلال هذه الفترة الطويلة بين الضعف والقوة والإضمحلال والإزدهار والتبعية والسيادة ، ولم تكن البلاد بمعزل عما يجري في بقية أنحاء الشرق الأدنى، بل إن تاريخها يرتبط إرتباطاً وثيقاً بما يجري في بقية البلدان. ففي هذه الفترة تابعنا قيام الدولة الكشية، كما تعاظم نفوذ الحثيين الذين أسسوا إمبراطورية إمتدت من آسيا الصغرى حتى شمال سورية، وأقاموا فيها دولاً ظل بعضها قائماً حتى بعد إنهيار مملكتهم في ١٢٠٠ ق.م. بزمن طويل. ووصلت جيوشهم إلى بابل، كما ظهرت في هذه الفترة الأقوام الحورية التي أسست الدولة الميتانية التي كان لها التأثير المباشر على بلاد آشور. وكانت سورية مسرح للصراع بين المصريين والحثيين، وكان لعلاقة مصر بالكشيين وبعض الدويلات السورية أثر في توجيه سياسة الآشوريين.

فقد تمكن الحوريون من السيطرة على بلاد آشور في بداية العصر الآشوري الوسيط، ويعتقد أن هذه الأقوام قدمت في الاصل من شمال غرب إيران، وقد كانت تحركاتهم الإنتقالية في أجزاء كبيرة من جنوب غربي أسيا، هي السبب الذي جعلهم من أهم القوى الفاعلة في تأريخ الألف الثاني ق.م. وموطن الدولة الحورية كان في شمال بلاد وادي الرافدين وسوريا، وقد ورد إسم الميتانيين لأول مرة في الكتابات المصرية منذ القرن التاسع عشر ق.م. (وآخر ظهور لهم في زمن الملك الآشوري تگلات – بلاصر ١١١٥– ١٠٧٧ ق.م). وقد إستغلت هذه الأقوام ضعف الدولة الحثية وإنقساماتها الداخلية فأسست لها دولة عرفت بإسم الدولة الميتانية(١٤٦٠ –١٣٣٠ ق.م) إمتد نفوذها ليشمل المنطقة الواقعة بين بحيرة وان إلى أواسط الفرات، ومن جبال زاگروس إلى الساحل السوري، وكانت بلاد آشور من ضمن البلاد التي وقعت تحت نفوذها وسيطرتها المباشرة. مركز تركز هؤلاء القوم كان في وادي الخابور، وعاصمتهم (وَشُّوكانّي)، (حالياً تل

فخيرية قرب مدينة رأس العين) . معلوماتنا عن هذه الفترة جاءت مما عرف برسائل العمارنة التي شرحناها سابقاً. وبعد أن دب الضعف في الدولة الميتانية، يبدأ الطور الثاني من عصر الآشوري الوسيط الذي تميز بإستقلال بلاد آشور ونمو قوتها وبروزها كدولة مؤثرة في الأحداث الدولية. فقد تمكن آشور- أوبالط(١٣٥٤-١٣١٨ ق.م) من التخلص من نفوذ الميتانيين والقضاء عليهم ساعدته في ذلك الظروف السياسية المؤاتية في الشرق، منها إنقسام الدولة الميتانية داخلياً وأطماع الدولة الحثية وإنشغال مصر وملكها بالدعوة الدينية الجديدة. كما فشل الكشيين في تأليب المصرين ضد الآشوريين، وأنهم لم يتمكنوا من السيطرة عليهم بعد أن نبذهم الميتانيين. بعد هذا العاهل استمرت قوة آشور بالتنامي، ووضعت قوتها من خلال تعاملها مع الأقوام الجبلية الطامعة، وعملت على تأمين طرقها التجارية وأمنها الداخلي، ودرء الأخطار الخارجية. وكان من بين قادتها المحاربين شلمنصر الأول(١٢٧٤-١٢٤٥ ق.م.) الذي أشتهر بحملاته العسكرية على الأقوام الجبلية في المنطقة الشمالية الشرقية، وغزا لأول بلاد أورارتو(إرمينيا) وضم بقايا الدولة الميتانية المعروفة بدولة خانيكلبات. وهو أول من بدا اعمال التهجير الإجباري الكبرى. وختم أعماله بتأسيس عاصمة جديدة هي كلخ(نمرود)، ولكن هذه المدينة هجرت بعد حين وتعرضت للخراب، واستمرت هكذا حتى قيام آشور-ناصر-بال الثاني(٨٨٤-٨٥٩ ق.م) الذي أعاد بنائها وتشييد قصره فيها.

عموماً خلف الملك شلمنصر الأول إبنه توكلتي-ننورتا الأول الذي إتبع سياسة التهجير، التي إبتدءها والده، على نطاق واسع وشن هجوماً على بابل أخضع خلاله الملك الكشي لسلطته ولأول مرة دخلت بابل تحت الحكم الآشوري المباشر ثم بد الضعف في حكومته لأسباب غامضة وقضي عليه بثورة داخلية، ودلت بلاد آشور في فترة ضعف وإضمحلال. وإنتعشت البلاد مرة ثانية في عهد تجلات- بلاسر الأول ١١١٦- ١٠٧٧ ق.م. الذي شن عدة هجات على سوريا ووصل حتى بوادي الشام ولا سيما تدمر. وقتل مثل سلفه في مؤامرة في القصر، وأعقبه فترة ضعف أصابت الدولة الآشورية إستمرت حتى نهاية العصر الآشوري الوسيط. لقد خلف لنا الملوك المذكورين أعلاه كثيراً من النقوش؛ وبعضها طويلاً جداً. وهي تتضمن تقارير حربية مفصلة صيغت معظمها بلغة بابلية ذات صبغة آشورية، كانت تلقى إستحساناً في بلاد آشور. وبالعودة إلى الكشيين، فإنه بعد نهاية حكمهم تدخل البلاد في فترة اضطراب سياسي طويل. ومنذ ذلك الحين حتى عهد السيادة الآشورية في القرن الثامن ق.م، حكمت البلاد ست سلالات غير مهمة سياسياً. ففي فترة القرنين اللاحقين (١٢و١١ ق.م) حكمت بابل من قبل أهلها ، وقد كانت السلالة المحلية الأولى مرتبطة بمدينة إيسن، وسجلت في قائمة الملوك بوصفها السلالة الثانية لتلك المدينة، ومن أبرز ملوكها الملك نبوخذنصر الأول، ومن مآثره أنه غزا عيلام وأعاد تمثال مردوخ من مدينة سوسة، كما أشرنا. وشهدت هذه الفترة أيضاً العصر الآشوري الوسيط حيث

الملك النشط تجلات – بلاصر(١١١٤– ١٠٧٦ ق.م) الذي عمل على نشر الهيمنة الآشورية إلى أبعد من أي وقت مضى، ووصل إلى لبنان وأرسل تمساحاً هدية لملك مصر. ويعتبر النص الذي دون فيه انتصاراته وحملاته العسكرية ورحلات الصيد، على موشور طيني من أهم النصوص إذ أنه كان النص الذي إختارته الجمعية الآسيوية الملكية ليتم ترجمته في عام ١٨٥٧ من قبل نخبة مختارة من العلماء لإختبار صحة الحلول لفك اللغة المسمارية. عموماً كانت هناك مناوشات بين المملكتين، وفي هذه الفترة كانت هناك ضغط متزايد من الأقوام والقبائل الآرامية، ربما كانت القوة المسبة للاضطرابات في بابل في تلك الفترة. كما أنهم هاجموا بلاد آشور في نهاية حكم تجلات– بلاصر. يبدو أنهم نجحوا في إقامة ممالك محلية على سواحل البحر المتوسط وشمالي سوريا. أما في بابل فقد أقيمت دويلات قبلية صغيرة (بيتو= نظام البيوت)، امتدت في بعض الأحيان إلى بعض المدن الكبرى مثل بابل ونفر والوركاء. كانت اللغة الآرامية، وهي من اللغات السامية الغربية كما اشرنا، قد حلت في بلاد بابل محل البابلية باعتبارها اللغة المحكية وظلت حتى الفترة الإسلامية. وهي أول لغة من لغات بلاد وادي الرافدين لا تكتب بالحروف المسمارية بل بالحروف الأبجدية المتصلة وشجع أسلوبها الأبسط على زيادة تبنيها. لقد أشتقت منها الحروف العربية الحديثة والعبرية أيضاً من أبجديتها المتصلة. لقد إزداد ضغطهم في القرن الحادي عشر مما حدا بالبابليين والآشوريين إلى تناسي خلافاتهم، وطلبا مساعدة بعضهم كما فعل الملك البابلي (شابك– زيري١٠٨١–١٠٦٩ ق.م) الذي ذهب إلى آشور من أجل الحصول على مساعدة ملكها (آشور– بل–كالا ١١٧٣–١١٥٦ ق.م). أما سلالة بابل الرابعة (سلالة إيسن الثامنة) فلا نعرف عنها الكثير وحتى الأسماء مشكوك فيها. كما ظهرت سلالة ثانية فيما يعرف بمملكة القطر البحري.

المحاضرة السابعة عشر

العصر الاشوري الحديث ٩١١- ٦١٢ق. م

الإمبراطورية الآشورية الأولى(٩١١-٦١٢ ق.م) :

ظهر في آشور مع أواخر القرن العاشر ومطلع القرن التاسع قبل الميلاد البداية الحقيقة للإمبراطورية الآشورية الحديثة، ففي عهد الملك أدد–نراري الثاني من حوالي ٩١١– ٨٩١ ق.م. دب الانتعاش في أرجاء الدولة الآشورية بعد فترة من التلاشي تقريباً، وبدأت آشور تستعيد مركزها السابق والمؤثر في الشرق الأدنى، وبدأ هذا الملك بعد من الحملات العسكرية إلى حدود آشور المختلفة لإعادة سيطرة آشور وإشعار الأقوام الأخرى بعودة القوة الآشورية، فقام بحملة على بلاد بابل، وعقد معاهدة مع بلاد بابل لتثبيت حدود الدولتين، وكان لهذه المعاهدة، التي تعرف حالياً بـ (التأريخ التعاصري) أهمية خاصة بالنسبة للمؤرخين المحدثين لأنها احتوت

على موجز لتأريخ المنازعات والصدامات بين البلدين في الفترة السابقة لإبرامها. وقام الملك توكلتي ننورتا الثاني(٨٩٠-٨٨٤ ق.م.) بسلسلة من الحملات العسكرية منها حملة عسكرية على الجهات الغربية حيث الدويلات الآرامية، وانتزع منها اعترافا بالدولة الآشورية، وأخضع مناطق حول بحيرة وان ومنه بلاد نائيري، وقاد حملة ثالثة على بلاد بابل، وتوغل في آسيا الصغرى. وكان عهد(آشور- ناصربال الثاني٨٨٣-٨٥٩ ق.م) إبن الملك توكلتي ننورتا الثاني٨٩٠ -٨٨٤ ق.م. عاص حرباً بإمتياز، فقد إنتهج سياسة وحشية منظمة مثلت ذروة المرحلة الأولى من التوسع الاشوري الكبير.

لقد زاد وبالغ في تطبيق سياسة التهجير الإجباري التي كانت متبعة منذ القرن الثالث عشر ق.م، وشتت قسماً كبيراً من المجموعات البشرية التي كانت تفكر باستقلالها. ويبدو من نقوشه الكثيرة والمشاهد الفنية المنحوتة بشكل تسلسلي على جدران قصره في مدينة كلخ (نمرود) انها كانت تخدم بالدرجة الأولى أغراضاً دعائية. ولم يكن عصره عصر حرب فحسب، بل إنه كان مليئاً بالأعمال العمرانية والإدارية التي توجت الانتصارات العسكرية، ومن أبرز أعماله العمرانية إعادة بناء مدينة كلخ (نمرود) التي فتحها في سنة ٨٧٩ ق.م. في احتفال مهيب حضرته ٧٠ ألف شخصاً في مراسيم استمرت لمدة عشرة أيام، كما جاء وصف هذا في نص مسماري من عهد هذا الملك. واستمر التوسع العسكري والازدهار العمراني في عهد خلفه شيلمنصر الثالث(٨٥٨-٨٢٤ ق.م.) وشكلت ممالك إسرائيل حلف بقيادة مملكة دمشق ضد الجيش الآشوري الذي تمكن من هزم هذا التحالف في معركة القرقار.

ثم شكلوا الحلف مرة أخرى مما حدى بالملك الآشوري مجابهتهم ثانية والاستيلاء على دويلة كركميش، ومنها شن الحروب على هذه الدويلات. وتمكن من ضمها جميعاً مما دفع بالمصريين لدفع الهدايا تحسباً. أما في الجنوب فقام الآشوريين بإخماد الثورة في بلاد بابل ضد الملك البابلي الموالي لهم، وفي الشمال الشرقي فقد شنوا الحملات ضد دولة أورارتو التي كانت تهدد مصالحهم التجارية. وقد خلف أيضاً كثيراً من النقوش الطويلة والتقارير الحربية المدونة على مشاهد مصورة ممتلئة.

ما نعرفه عن أخبار خلفائه اقل بكثير؛ فقد اجتاحت بلاد آشور في نهاية حكم هذا العاهل ثورة داخلية بزعامة أحد أبنائه، قضى عليها ولي العهد شمشي –أدد الخامس ٨٢٣-٨١١ ق.م بعد أربعة سنوات. وبعد ذلك مات الملك شيلمنصر، ولم تقم للدولة الآشورية في هذا العصر قائمة رغم المحاولات الجادة من بعض ملوكها ومنهم شمشي – أدد الخامس، وخليفته أدد نراري الثالث(٨١٠- ٧٨٢ ق.م) الذي وصل إلى حدود مصر لأول مرة في التأريخ الآشوري. يبدو أن قوة بعض حكام الأقاليم الكبرى قد تنامت، فانتهزت هذه الأقاليم البعيدة الفرصة للانفصال، وقامت ثورات داخلية عملت على إضعاف الجبهة الداخلية الأمر الذي أدى

لإنكماشها. وفي هذا الوقت تنامت دولة أورارتو، وهي الدولة التي موطنها أرمينيا، وكانت هي الخصم الأخطر على بلاد آشور منذ ٨٥٠ ق.م ، وأستطاع ملوكها الأوائل(بين ٨٢٨ –٧٥٣ ق.م) أن يصلوا إلى سوريا. كما عاد الحلف السوري يهدد مصالح الآشوريين.

بعد الأوضاع المضطربة في آشور، إغتصب العرش فيها الملك (تجلات– بلاصر الثالث ٧٤٤ –٧٢٧ ق.م) المعروف في كتاب العهد القديم بإسم (بول) ويبدو أنه قد شارك في مؤامرة ضد العائلة الملكية السابقة وتم إغتيالهم جميعاً. ويعد هذا العاهل المؤسس الحقيقي للإمبراطورية الآشورية. وأجرى جملة من الإصلاحات الإدارية، وقام بإعادة تنظيم الأقاليم الآشورية. وأُقيم نظام حكم إمبراطوري فعال في تلك البلاد القوية طيلة المئة سنة اللاحقة، وطبق نظام المراحل البريدية للإتصالات السريعة. وقد عرفت بالإمبراطورية الآشورية الحديثة التي إنتهت بسقوط نينوى في ٦١٢ ق.م. كانت الدولة الآشورية كما بينا منكمشة على نفسها حين جاء هذا الملك إلى سدة الحكم، ورغم إنه لم تحدث تغييرات جوهرية في الوضع السياسي العام لمنطقة الشرق الأدنى، إلا أن بلاد آشور تمكنت خلال فترة وجيزة من التغلب على الإضطرابات وتجاوز السلبيات وإعادة قوتها وسيطرتها السابقة بل أن نفوذها إمتد لمناطق جديدة لم تكن واقعة تحت سيطرتها سابقاً. ويعزى سبب هذه الإستفاقة السريعة والنشاط الملحوظ إلى الإصلاحات الإدارية والعسكرية والإقتصادية التي تم إنجازها، فضلاً عن بعض الحملات العسكرية التي قام بها الجيش الآشوري لأستعادة نفوذه على الأقاليم المتمردة.

فقد أنهى هذا الملك النفوذ الأورارتي في شمال سوريان وأحتل دمشق، وجعل بابل دولة تابعة له تبعية من نوع خاص، كما أعاد تنظيم مقاطعات المملكة ، وصغر مساحاتها بهدف تقليص قوة الحكام الذين تزايد نفوذهم. تولى الحكم بعده إبنه شلمنصر الخامس (٧٢٧–٧٢٢ ق.م)، الذي تعرض لمرض فقدان الذاكرة ثم توفى أثناء محاصرته مدينة السامرة في فلسطين.

عموماً تشمل الإصلاحات التي تجاوزت بموجبها الدولة الآشورية حالة التردي التي كانت عليها في العصر السابق مايأتي :

١– أعيد تنظيم المقاطعات والأقاليم الآشورية وقلص حجم المقاطعات بصورة عامة، لاسيما المقاطعات الواقعة على الحدود، لتسهيل مهمة إدارتها أولاً ولتقليص نفوذ وقوة حكامها المحليين ثانياً. وقسمت كل مقاطعة إلى وحدات إدارية أصغر وعين في كل وحدة موظف آشوري كفؤ مرتبط بحاكم المقاطعة من جهة وله الحق بالاتصال بالملك والحكومة المركزية من جهة ثانية. وكان هؤلاء الموظفين أشبه بالعيون والمراقبين على حسن تنفيذ السياسة المركزية في المقاطعتان وكان على والي كل مقاطعة وولاية أن يقدم تقارير تفصيلية عن شؤون مقاطعته، كما اتبعت سياسة مركزية غايتها تقليص نفوذ النبلاء والمتنفذين.

٢- كانت السياسة الإدارية في البلدان المفتوحة هي نفسها السياسة الآشورية التقليدية والمتضمنة الإبقاء على الأسرة المحلية ومنحها إستقلالاً ذاتياً شريطة إلتزامها بولائها للدولة الآشورية ودفها الضرائب المفروضة عليها، مع ضرورة تعيين ممثل آشوري في بلاطها يوجه سياستها ويشرف على مصالح الدولة الآشورية فيها. ومقابل ذلك تلتزم الدولة الآشورية بتقديم العون المادي والمساعدة العسكرية إلى مثل هذه البلدان في حالة هجوم خارجي عليها أو نشوب تمرد أو ثورة داخلية. وإذا ما قام تمرد وعصيان في مثل هذه البلدان ضد الحاكم الآشوري أو إمتنعت عن دفع الضرائب المستحقة عليها، كانت الإجراءات الآشورية الإعتيادية تتضمن القيام بحملة عسكرية على المنطقة والقضاء على الأسرة الحاكمة المحلية وإقصائها عن الحكم وتهجير بعض سكان المنطقة إلى منطقة أخرى وإلحاق المنطقة بالحكم الآشوري المباشر ليكون حالها كبقية المقاطعات الأخرى.

٣- إتباع نظام بريدي غاية في الدقة والسرعة، لضمان سرعة اتصال بين الحكومة المركزية والمقاطعات النائية. إذ عدلت الطرق الرئيسة وأقيمت عليها المحطات البريدية وجهزت بالحيوانات اللازمة لاستمرار الرسل في رحلاتهم البريدية من وإلى مقرات الحكومة المركزية.

٤- أعيد تنظيم الجيش وأعيد النظر في السياسة المتبعة في تجنيد الأفراد، ولم يعد الجيش قاصراً على الفلاحين والعبيد المسخرين، بل أتبع نظام التجنيد الإجباري على معظم المواطنين.

٥- رافق هذه الإصلاحات والتغييرات الداخلية تحسن في الوضع الإقتصادي وإستقرار في أرجاء الإمبراطورية.

٦- القيام بجملة من الحملات العسكرية بإتجاه الأقاليم والبلدان التي أظهرت عدم الولاء للدولة الآشورية. ففي الجهة الغربية تم إعاد تنظيم المقاطعات بهدف السيطرة التامة على الطرق التجارية، وتم الإستيلاء على الممالك الإسرائيلية التي كثيراً ما أثارت الثورات وأعلنت العصيان للوجود الآشوري.

السلالة السرجونية :

يبدو إن عام ٧٢٢ ق.م. قد حمل أحداثاً مهمة، ففي بابل تولى العرش ملكاً من بيت ياكين إنه الملك(مردوخ- أبلا- إدينا الثاني ٧٢١-٧١٠ ق.م) المعروف في الكتاب المقدس بـ(مردوخ بلادان) [سفر الملوك الثاني٢٠:١٢]. أما في بلاد آشور فتولى الحكم ملكاً قديراً ونشيطاً بشكلٍ غير عادي، ويبدو أنه كان غير مهم في عائلة تجلات- بلاصر الثالث، أو أنه ليس من العائلة الملكية. أطلق على نفسه إسم سرجون(شروكين = الملك الشرعي) وهو إسم شهير، وإختياره لهذا الإسم قد يمثل طموحه، فضلاً عن نسبه المشكوك فيه. عرف العهد الذي شغلته هذه السلالة بعهد الإمبراطورية الحديثة أو الإمبراطورية السرجونية، تولى الحكم فيها بعد سرجون المؤسس ثلاثة من أعظم الملوك. مدة حكم هؤلاء الملوك الأربعة موثقة بالمصادر

التأريخية الوفيرة– بإستثناء السنوات الأخيرة من عهد آشور– بانيبال، وذلك بشكل لا تماثلها أية فترة من فترات تاريخ بلاد وادي الرافدينن فقد خلف كل ملك من هؤلاء نقوشاً كثيرة وطويلة جداً. لعل من أهمها الوثائق الملكية، ونصوص قرأة الطالع (ملامح الكبد الحيواني) الموجهة إلى الإلهين شمش وأدد. وتكهنات الإلهة عشتار والدعوات الملكية. فضلاً عن المعلومات التوراتية وبعض الأخبار اليونانية. والأهم التقارير المصورة على جدران القصرين المكتشفين في نينوى و خرسباد (دور شروكين= حصن سرجون)، وهي المدينة التي أسسها سرجون المؤسس بعد أن تولد لديه شعور بعدم الثقة بكهان العاصمتين القديمتين آشور ونينوى.

تميز هذا العصر بالإزدهار الحضاري وإتساع رقعة الدولة الآشورية بحيث ضمت مصر إليها لأول مرة كما سنوضح ذلك. كما تميزت هذه الفترة بكثرة الآثار المعمارية والفنية والمادية الأخرى، فضلاً عن الآثار المعمارية في المدن الآشورية نينوى ودور– شوركين (خرسباد)، تم العثور على عشرات الآلاف من النصوص المسمارية كما في مكتبة الملك آشوربانيبال، تحكي قصة الإمبراطورية الآشورية، وكذلك المئات من المنحوتات والتماثيل، ومنها الثيران المجنحة الضخمة التي تجسد القوة والجبروت لحكام هذه الدولة.

المحاضرة الثامنة عشر

الدولة البابلية الجديدة

١- الكلدانيون :

بالعودة لمتابعة الأحداث في القرن الثامن، نلاحظ تدفق الأقوام الكلدانية ،التي ملئت الفراغ السياسي في بلاد بابل. وقد ورد ذكرهم أول مرة في حوليات الملك الآشوري شلمنصر الثالث. عاش الكلدانيون بين المستنقعات والبحيرات على طول نهري دجلة والفرات السفليين. كان تنظيمهم قبلياً وكان بيتو(عائلة) كلدانية برئاسة شيخ كان يدعو نفسه (ملكاً) أحياناً. ومن أكبر هذه القبائل بيت– داكوري التي تقيم جنوبي بورسبا، غير بعيد عن بابل، وإلى الجنوب منها بيت– أموكاني، أما بيت– ياكين فكانت تقيم على ضفتي نهر دجلة نحو الشرق، بمحاذاة بلاد عيلام، وهذه المنطقة وفق المصادر الآشورية تقع إلى الجنوب من بابل، إذ يخبرنا سرجون الآشوري تقع على ساحل البحر المر(وهي إحدى تسميات الخليج، فضلاً عن البحر الذي تشرق من الشمس والبحر السفلي = مقابل البحر العلوي وهو البحر الأبيض المتوسط)، وإنها تمتلك حدوداً ليس مع دلمون فقط وإنما مع عيلام، ويبدو أن هذه الحدود المشتركة تقع في المنطقة الواقعة شمال الخليج، في مكان ما أسفل دجلة والفرات. وليس هناك من دليل على أنهم كانوا يتحدثون بغير البابلية، رغم أن هناك من يشير إلى أنهم ربما كانوا يتكلمون لهجة آرامية إستناداً إلى وجود أسماء آرامية في أوساطهم.

عموماً يذكر الملوك الكلدانيون أن أربيا- مردوك (حوالي ٧٧٠ ق.م) هو المؤسس الحقيقي لسلالتهم. في عام ٧٤٧ ق.م تولى الملك نابوناصر، وبه تبدأ حقبة جديدة في تاريخ بابل، إذ احتفظ منذ ذلك الحين بالسجلات الدقيقة للأحداث التاريخية، ويبدأ ثبت الملوك البابلي والقانون البطليموسي [هذا القانون هو نظام في علم الفلك تعد الأرض فيه مركز الكون، وتدور حولها الشمس، سمي بهذا نسبة الفلكي بطليموس الذي عاش في الإسكندرية في القرن الثاني الميلادي] يبدأ كلاهما حساباتهما بتولي هذا الملك العرش. وتروي الكتابات أن هذا الملك احتفظ بحسابات فلكية بالغة الدقة من تلك الفترة وبعدها. ويبدو أنها أصبحت هي المصدر الذي اعتمد عليه واضعو السجلات التاريخية اللاحقين. وتضمنت هذه اليوميات البابلية أرصاداً فلكية شهرية مع تقلبات الأمور، مثل أسعار السلع ومناسيب النهر والجو. إن هذه السجلات تقدم معلومات تثير الإعجاب.

٢- الدولة البابلية الحديثة :

إنتهى كيان الدولة الآشورية السياسي بسقوط نينوى، أما في الجنوب فإن الزعيم الكلداني نبوبلاصر قد نصب نفسه ملكاً على بابل في عام ٦٢٦ ق.م. وأسس سلالة جديدة حكمت بلاد بابل وسيطرت على معظم البلدان والأقاليم التي كانت تابعة للدولة الآشورية لمدة تناهز القرن وعرفت في المصادر التأريخية بإسم الدولة البابلية الحديثة أو الدولة الكلدانية(نسبة إلى قبيلة كلدو أو كشدو التي ينتسب إليها نبوبلاصر) وهي أحدى القبائل الآرامية التي إستقرت في القسم الجنوبي من بلاد بابل في المنطقة التي عرفت ببلاد البحر. ورغم قصر فترة حكم هذه الدولة إلا أنها كانت صاحبة حضارة مميزة في تأريخ العراق القديم على المستوى الحضاري والسياسي. فمن الناحية السياسية كانت هي الوريثة للدولة الآشورية المترامية الأطراف، وقد عملت على تثبيت سلطانها عليها بإستثناء بعض المناطق النائية في الجهات الشمالية والشمالية الشرقية. أما من الناحية الحضارية، فقد وصلت بابل قمة مجدها الحضاري وغدت من أعظم مدن العالم القديم وفاقت بسعتها وعظمتها وشهرتها المدن الآشورية والمدن اليونانية والرومانية.

من أشهر ملوك بابل في عهدها الجديد نبوخذنصر (نابو – كدري- أسر)(٦٠٤- ٥٦٢ ق.م. إبن الملك السابق، وقد عد المؤسس الحقيقي لهذه الدولة ودام حكمه حوالي ٤٠ عاماً. وهو من بنى بابل التي نشاهد أطلالها والتي وصفها المؤرخ هيرودتس، كما أنه اشتهر من خلال ما كتب عنه في الكتاب القدس. وقد زحف نحو داخل سوريا في حملة طويلة، لم تكن سوى لعرض القوة بلا مقاومة، كان الهدف منها هو تسهيل جمع الجزية من غير شك. وقد خضع ملك يهوذا (يهوياكين) لإرادته، ونقل عدد من اليهود رهائن لبابل، ربما يكون النبي دانيال أحدهم. زحف نحو مصر في عام ٦٠١ ق.م إلا أنه فشل، ثم بدأ بإعداد الجيوش لحملة أخرى، وفي هذه الأثناء تحول ولاء ملك يهوذا نحو مصر، مما إضطر الملك البابلي لمحاصرة أورشليم

عام ٥٩٧ ق.م، ومات ملكها قبل وصول الجيش البابلي، أو أثناء الحصار، وأسر إبن ملك يهوذا مع عائلته وكبار المسؤولين الحكوميين والعسكريين والصناع والجنود، ويقدر الأسرى بحوالي عشرة آلاف، وهو ما عرف بـ(السبي البابلي [اليهودي] الأول). وبعد فترة غير الملك(صدقيّا) ولائه للملك المصري ، الأمر الذي أثار غضب ملك بابل، ورد بعنف شديد وحاصر أورشليم وبعد ١٨ شهراً من الحصار دخل المدينة في عام ٥٨٦ ق.م. وأسر ملكها وأهلها وهو ما عرف بـ(السبي البابلي الثاني). وواضح أن هذا الملك البابلي قد مارس سياسة سابقيه من الملوك الآشوريين في تهجير السكان ونقلهم، وإن كانت النصوص التي توثق هذه الأحداث كانت ذات طابع دعائي أيضاً، إذ أنها لم تكتب لغايات إدارية أو لكسب دعم الجيش، بل أنها كانت موجهة إلى الشعوب المحكومة، ربما كانت قد كتبت لهدف واضح هو تشجيعهم على قبول التغير الجذري الذي أدى اليه تغير الإمبراطورية البابلية. فبإعتبارهم ورثة الإمبراطورية الآشورية، كانت أهدافهم البعيدة الأمد ترمي إلى إيجاد الولاء والدعم بين المجموعات والشعوب المحكومة في إمبراطوريتهم، بدلاً من الفتح، ولذلك كانت المهمة الدعائية لهذه النصوص مبدئية.

مات نبوخذنصر في عام ٥٦٢ ق.م وخلفه إبنه إميل–مردوخ الذي حكم لفترة قصيرة ثم قتل في ثورة وأعقبه (نركال– شر–أوصر ٥٥٩–٥٥٦ ق.م) وكان قائداً عسكري، وكان قد تزوج إبنة نبوخذنصر.

وأعقبه أخر الملوك البابليين (نبونائيد ٥٥٥– ٥٣٩ ق.م) ويبدو أنه لم يكن من عائلة الملك نبوخذنصر، إذ يقول (أنا نبونائيد الذي لا يحمل شرف الإنتماء إلى عائلة ملكية) ويعرف عنه أنه رجل مسن مولع بالماضي، وكان عليه أن يواجه حالة الإضطراب في الدولة البابلية التي بدأت بعد وفاة نبوخذنصر، وتنحصر مشاكل البلاد بمشكلتين أساسيتين الأولى إقتصادية والثانية دينية.

ففي الجانب الإقتصادي كانت البلاد تمر بأزمة إقتصادية حادة نجمت من إحتكار المعابد للشؤون الإقتصادية وسيطرتها الكاملة تقريباً عليها وتقلص واردات الحكومة المركزية يقابل ذلك تضخم كبير ومستمر في ميزانية الحكومة التي إستمرت تصرف الأموال الطائلة على المشاريع العمرانية وتغذي الجيوش للقيام بالخملات العسكرية، وزاد في الأزمة سيطرة الميدين ومن ثم الأخمينيين على الطرق التجارية الرئيسة التي كانت تدر أرباحاً على بلاد بابل، بينما كان من نتيجة إندلاع الثورات والتمردات في سورية أن إنقطعت الطرق التجارية المؤدية إلى ساحل البحر المتوسط. فارتفعت الأسعار إرتفاعاً فاحشاً ولا سيما أسعار المواد الغذائية والحاجات الضرورية.

أما المشكلة الدينية فتمثلت بظهور تيارات دينية جديدة نتيجة إختلاط البابليين بالأقوام الأخرى ولا سيما اليهود الذين سباهم نبوخذنصر، وربما تأثر نبونائيد ببعض هذه التيارات فدعى لعبادة الإله سن إله القمر، وصرف على معابده أموالاً طائلة. كانت أُمه منذورة للإله سن في

حران، وعاصرت حوالي أربعة ملوك آشوريين، وعاشت طيلة فترة حكم السلالة البابلية الحديثة إلى السنة التاسعة من حكم الملك الأخير، وكان إبنها وهي في عمر ١٠٢ أو ١٠٤ عندما ماتت. كانت مدينة حران مركزاً تجارياً ودينياً مهماً زمناً طويلاً، وكانت المقر الأخير للسلطة الآشورية.

كان أول عمل للملك البابلي هو تعمير معبد أمه، الذي كان قد دمر عندما نهب الماذيون والبابليون حران، ويذكر الملك كيف أنه رأى حلماً أمره فيه مردوخ ببناء المعبد. ربما يكون دافعه التقوى والطاعة، وإن كانت طاعته المتزايدة للإله سن تمثل إبتكاراً دينياً في بلاد بابل ولا شعبية استغلها (الخادم الشاب) في نص الحلم في وقتٍ لاحق. كذلك أثارت إصلاحاته الإدارية سخطاً شديداً، فضلاً عن أعباء الحروب السابقة على البلاد وحدوث تضخم اقتصادي. وختم أعماله بتنصيب إبنه بيل –شاصر وصياً على العرش في بابل، وهو أمر لم يوضع له تفسير مرضٍ لحد، وقاد جيشاً وزحف به إلى سوريا ولبنان وأخيراً إلى تيماء وهي واحة رئيسية في شمال غربي الجزيرة العربية(تقع بين المدينة ومنطقة الجوف الحالية) حيث أقام لمدة عشر سنوات طوعياً على ما يبدو.

وهناك عدة تفسيرات لتصرفه هذا، منها أنه خشيَّ إزدياد قوة فارس، وبشكل خاص الخطر الذي يشكله الملك الفارسي كورش الثاني منذ سنة ٥٥٠ ق.م على البلاد. أو لعله فعل ذلك بسبب إنشغاله بالإصلاح الديني وسخطه، الذي عبر عنه في تكريساته إزاء ما عده لا تقوى مواطنيه وتمردهم على القوانين. وربما الدافع الاقتصادي كان حاضراً، فهذه الواحة هي ملتقى طرق القوافل من دمشق واليمن والخليج ومصر، وكانت المدينة مركزاً طبيعياً للتجارة العربية وكان الحصول على إمبراطورية تجارية في جنوب شبه الجزيرة إنجازاً جديراً بملك من طراز نبوخذنصر وليس ملكاً مسناً مثل نبونائيد. عموماً إن أسباب عودته لبابل غامضة مثل أسباب رحيله، وأخيراً وقع تحت ضغط الأقوام الأخمينية وقبض عليه في بابل عام ٥٣٩ ق.م. حيث قتل إستناداً لرواية هيرودوتس.

وكان الفرس قبيلة هندو–أوربية استقرت في بلاد عيلام، وإسمها مشتق من بارسوا (فارس الحديثة) إحدى معاقلها الأولى. وقد شكلت هذه الأقوام الإيرانية إمبراطوريتين في الشرق الأدنى القديم، الأولى هي الإمبراطورية الأخمينية في عام ٥٥٠ ق.م. وكان ملكهم الشاب كورش الكبير(كورش الثاني، حكم بابل بين ٥٣٩–٥٢٩ ق.م) من نسل الأخمينيين، ومؤسس السلالة (أخمينس) التي عرفت المملكه بإسمه في القرن السابع ق.م. كانت عاصمتهم أكباتانا(مدينة همدان الحالية) وهي العاصمة السابقة للأقوام الميدية أو الماذية (الماذيون أو الماديون هم شعب إيراني، أقرب إرتباطاً بالفرس، الذين سكنوا منطقة همدان في النصف الأول من الألف الأول ق.م. ربما لم يشكلوا دولة متماسكة، ولكن بعض ملوكهم وصلت قوته وهيمنته إلى شرق

الأناضول، وهم من ساهم في القضاء على الدولة الآشورية كما تابعنا)، والإمبراطورية الثانية للفرس هي الفرثيية التي قامت في حوالي ١٤٠ ق.م وإستمرت إلى ٢٢٤ م.

إجتاز الملك الأخميني كورش نهر دجلة في عام ٥٤٧ ق.م. واستولى على ساردیس عاصمة ملك ليديا في آسيا الصغرى في الحملة الثانية، ونجح في الدخول إلى بابل دون مقاومة، إذ استعمل الدعاية والإغراء المادي. واتبع سياسة دينية مغايرة لسياسة نبونائيد، وتذكر الكتابات أن مردوخ الذي أهمله ملك بابل، قد سار مع الملك الفارسي ومع جيشه (صديقاً ورفيقاً). ودخل مدينة بابل منتصراً وقبض على ملكها وقتله كما اشرنا.

ومع هذا فقد نشبت في بلاد بابل بعض حركات التمرد وإن كانت معدودة ومحدودة التأثيرن وحكم بعد كورش إبنه قمبيز الثاني (٥٢٩- ٥٢٢ ق.م) الذي أضاف مصر إلى إمبراطوريته، التي أصبحت في عهده أوسع من أي إمبراطورية شهدها العالم. ورغم هذا حدثت حركات تمرد ضدهم في بابل، حيث قام شخصان حمل كل منها إسم (نبوخذنصر) وطالبا بعرش بابل. إلا أن دارا الأول (٥٢٢- ٤٨٦ ق.م) أعاد الأمور إلى نصابها في بابل. أما في عهد أحشويرش الأول(أو يقرأ إكسركسيس الأول) فقد حدث تمرد ضخم أدى إلى نتائج خطيرة على البلاد من الناحيتين السياسية والاقتصادية. لم تصلنا من بلاد بابل سوى وثائق قليلة تعود إلى ما بعد سنة ٤٨٥ ق.م، بإستثناء وثائق مكتشفة في نفر، ويتضح منها أن البلاد أضحت فقيرة بشكل لافت للنظر.

إستمر حكم الفرس حتى مجيء الإسكندر الثالث(الكبير) المقدوني(٣٥٦ -٣٢٣ ق.م) في عام ٣٣١ ق.م. الذي لقي ترحيباً في بابل، فكافئهم ببناء إيساكيلا. وصمم على جعل بابل عاصمته الشرقية. بعد وفاة الإسكندر في بابل في ٣٢٣ ق.م، حدث صراع بين قادته، فانقسمت إمبراطوريته إلى إثنين، البطالسة في مصر والدولة السلوقية في آسيا الصغرى، بقيادة سلوقس مرزبان بابل السابق، الذي عاد وأستولى على بابل سنة٣١٢ ق.م. إلا أن هذه الدولة واجهت تحدياً من الشرق تمثل بالفرثيين أو البارثيين، وهم من الشعوب الإيرانية التي موطنها منطقة بحر قزوين، التي شكلت إمبراطورية حكمت بلاد وادي الرافدين من ١٢٢ ق.م. وحتى ٢٢٤ م. ثم تدخل بلاد وادي الرافدين تحت حكم الساسانيين الذين ينتهي حكمهم بدخول الإسلام في ٦٣٧ م. الفترة من سقوط بابل في ٥٣٩ ق.م وحتى دخول الإسلام سوف تكون مفصلة في مادة أخرى تدرسونها في مرحلة لاحقة.